تائهة في صحراء من مرمر

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: تائهة في صحراء من مرمر
التأليف: إيمان القهواجي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد الملازم: 11 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-79-5

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

محفوظة جميع الحقوق

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

يا أصدقائي:

جرّبوا أن تكسروا الأبواب

أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثواب

يا أصدقائي:

جرّبوا أن تقرؤوا كتاب..

أن تكتبوا كتاب

أن تزرعوا الحروف، والرّمّان، والأعناب

نزار قبّاني

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنّما هي ما يتذكّره، وكيف يتذكّره ليرويه.

غابرييل غارسيّا ماركيز

إهداء

إلى زوجي الحبيب أول من شجعني على الكتابة بالعربية ...

قولي نعم

منذ نعومة أظفاري وأنا أحلم بالسّفر وأنتظر تلك الطّائرة التي ستقلع بي وتحملني إلى حيث يبدأ الحلم وينتهي. كنت أتخيّلني أجوب العالم أتعرّف على الحضارات فأصافح البسطاء وأغوص في الثّقافات وأسيح بين العصور وأذهل في عظمة الشّلّالات. وتأخذني المدائن بسحرها وأذوق آلاف النّكهات. لكنّ قلبي كان يخفق أكثر لبريق طوكيو وباريس، منه لنور مكّة والمدينة. ولا غرو، فقد جئتُ من بلد لا يتذكّر المرء فيه الحجّ والعُمرة إلا إذا اشتعل الرّأس شيبا وبلغ من الكبر عتيّا. فتجده يقبل على الدّنيا وفتنتها ثمّ يزعم أن لن يكون بدعاء ربّه شقيّا...

وقد عزم أبي على أن يأخذني وأخواتي الثّلاث في رحلة خارج الوطن كلٌّ في أوان. لكنّ هذا المشروع الطّموح تأجّل وتعثّر، ممّا أتاح لي الفرصة كي أكبر ويكبر معي حلمي بل ويتغيّر. لم أعد تلكم الفتاة السّاذجة المنبهرة بحضارة الغرب لا ترى إلّا أضواءها ولا يهفو قلبها إلّا للندنها وباريسها وبرلينها.. كبرت الفتاة ولبست الحجاب وتعرّفت على دينها كما لم تعرفه قبلا. ثمّ إنّها أكملت دراستها الهندسيّة وشاركت في مناظرة للعمل في وزارة. تغيّرت الرّؤية فصرت لا أرى من الدّنيا إلّا تلك البقعة المباركة، مكّة والمدينة المنوّرة: هذه بغيتي وإلى هدف العُمرة أرمي.

لكن، حين قرّر أبي السّفر أخيرا كنت قد نجحت في المناظرة ولم يمض على التحاقي بالوزارة ثلاثة أشهر. وفي قانون العمل الغريب العجيب لا يحقّ لي

أن آخذ أيّ عطلة في عامي الأوّل. بل لم يكن لي ولزميلاتي المهندسات مكتب حقيقيّ ولا حاسوب.. لكن هذا موضوع آخر. كانت الفرصة أعظم من أن أتركها تمرّ بلا محاولة. أبي سيذهب للعُمرة بي أو بدوني فلمَ لا أجرّب حظّي؟ استجمعت شجاعتي ومضيت قدما لأفاتح رئيستي المباشرة في الموضوع.

كانت امرأة لطيفة هيّنة ليّنة لكنّها حازمة. تلبس الحجاب رغم ما تعنيه الكلمة من عقاب ماديّ ومعنويّ في سنوات الظّلم والجمر قبل أن يهرب الطّاغية بن علي وتطوف طائرته طويلا قبل أن ينزل ضيفا ثقيلا ذليلا على بلاد الحجاب والنّقاب. لم تكن رئيستي في العمل تلبس الخمار بالطّريقة التّقليديّة المحكمة. كانت تربطه إلى الوراء ثمّ تلفّ جزء منه حول رقبتها، وقد تظهر أذناها وتطلّ خصلات متمرّدة من شعرها ممّا يتيح لجنود فرعون وهامان الاستهزاء بها. فمرّة كانوا مجتمعين لمناقشة مشروع جديد إذ استشكلت عليها مسألة. فقال أحدهم ساخرا: «إنّها لم تعد تفهم جيّدا مذ وضعت هذا «الشّيء» فوق رأسها!». فاحتجّ صاحبه قائلا: «بل هناك بعض الخصلات الخارجة من تحت القماش فهي تساعدها على الالتقاط والفهم أحيانا». ولا حول ولا قوّة إلا بالله. طبعا نالت الكثير من الغضب والسّخط لأنّها سمحت بالتحاق أربع مهندسات للوزارة كلّهنّ محجّبات. يا للفضيحة. وماذا تفعل إذا كانت المحجّبات هنّ المتفوّقات في المناظرة؟

هذه امرأة شُجاعة تخبّأ خلف ابتسامتها وهدوئها شخصيّة عنيدة ومقاومة. كانت حظوظي إذن قويّة في الحصول على عطلة بأسبوعين بينما ليس لي الحقّ في يوم واحد إذا استندنا إلى القانون. فهي إنسانة متديّنة، ولذكر مكّة والمدينة

صدى في قلبها ورجع في مخيّلتها. لكنّني حين قصدتها لم أكن أتصوّر موافقتها بهذه السّهولة. فالقانون يقول... لكنّني فقط أحببت أن أجرّب.

طرقت باب مكتبها ثم دلفت أمشي على استحياء. وبشيء من التوجّس والحياء عرضت عليها مسألتي. فنظرت إليّ بعينين مبتسمتين فيهما بريق الإثارة والحلم. لكأنّها تراءت لها نفسها في ذاك المكان، ثمّ بعد هنيهة من التّفكير الحالم أجابت بالموافقة. موافقة هي أم مباركة؟ موافقة سهلة يسيرة مقدّرة من الله تقديرا.

لم أكد أصدّق أنّها وافقت وأنا الّتي ظننت أنّي أقوم بمحاولة يائسة بائسة. بل إنّ أبي زعم أن لا فائدة تُرجى أصلا من المحاولة. هنا تعلّمت درسا قيّما: إيّاك ألّا تحاول. حاول مهما بدا لك الأمر مستحيلا. فقدرة الله وحكمته أكبر من كلّ شيء. لكن يجب أن تأخذ خطوة إلى الأمام. ولنا في مريم ابنة عمران أسوة، إذ كانت في آلام المخاض والله سبحانه يقول ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1]. أي لا بدّ لك أن تبذلي مجهودا كي تحصلي على ما تريدين. فهذه دار عمل، لن نخلق النّبات ولن ننشئ الثّمر لكنّنا نحرث ونزرع والله يتكفّل بالخلق والرّزق سبحانه.

لم أتمالك نفسي من الفرح الّذي لم يكن في الحسبان، ظننت أنّها إمّا سترفض أو تأخذ مهلة للتّفكير. لكن أن توافق هكذا بمنتهى السّرعة والبساطة فهذا ما لم يخطر لي ببال. ارتميتُ على المرأة المسكينة وقبّلتها وأنا أعتذر في ارتباك ثمّ

(1) مريم، 25.

خرجت مسرعة حالمة لأبشّر صويحباتي وأزفّ لوالدي الخبر السّارّ. وماهي إلّا بضعة أيّام من التّحضير والاستعداد حتّى وجدتني في الطّائرة وأيّ طائرة، كانت أوّل وأعظم طائرة أركبها في حياتي وقد كان لي بعدها رحلات. فسبحان خالق الإنسان الّذي صنع بيديه مثل هذه «الكائنات».

الجانب الرّومنسيّ في داخلي جعلني أحمل معي قلما ودفترا عساي أدوّن فيه بعض اللّحظات الخالدة كما كان يفعل ابن بطّوطة وهو يجوب العالم وينقل لنا ما يرى ويسمع. هذه الخربشات في دفتري أعانتني على تأليف بعض الفصول المنشورة في مدوّنتي إبّان عودتي من السّفر. كنت أظنّها لن تتجاوز فصلين أو ثلاثة لكنّني كلّما كتبت أطلت وأجدت. لم يعد الأمر مقتصرا على نقل ذكرياتي وانطباعاتي عن العُمرة، بل صار وصفا دقيقا لكلّ شاردة وواردة، لكلّ لحظة فرح أو خوف أو مغامرة. فاتّصلت الحلقات ثمّ انقطعت لأنّ قلبي كان يهتف مع بني وطني في أيّام الثّورة الجميلة، أيّام الحرّيّة الأولى والآمال العريضة. فتركتُ سرد قصّتي ثمّ عدت إليها واستغرقت عامين كي أكملها. ثمّ رأيت أن أجمع هذه الحلقات في كتاب وأبوّبها وأنشرها على الانترنت، وهذا ما كان.

واليوم عدت إلى خوض التّجربة بالعربيّة لغتي الأمّ. أمّا النّسخة الفرنسيّة فهي أمامي لأستأنس بها وأشعل ما انطفأ من أركان ذاكرتي المهترئة، فقد مضى على عمرتي تلك ثماني سنوات!

* * *

الصّدمة الأولى

المدينة المنوّرة، 19 مارس 2010

هذا أوّل يوم لي في مدينة رسول الله ﷺ وفي أرض الحجاز، أو بالأحرى هي ليلتي الأولى. فقد أقلعت طائرتنا من مطار تونس قرطاج الدّوليّ على السّاعة الثّامنة ليلا وحطّت في مطار المدينة على السّاعة الواحدة والنّصف صباحا بتوقيت السّعوديّة. سعوديّة مه؟ هل سأشارك في جريمة تسمية بلد كامل باسم عائلة واحدة متغطرسة؟ بلد وأيّ بلد؟! بلد الحرمين الشّريفين، بلد الرّسالة الّتي أشرقت لها مشارق الأرض ومغاربها وصلُح بها أمر الدّنيا والدّين.

استغرقت الرّحلة ثلاث ساعات ونصف. كنت خلالها أنظر إلى أفراد الطّاقم الآسيويّ وابتساماتهم الهادئة وأتساءل عن السّرّ؟ كيف يستطيعون تحمّل كلّ هذا الضّغط؟ كم هو فظيع العمل في هذا المكان المغلق المعلّق بين السّماء والأرض، سواء كنت القائد الّذي يسيّر الجهاز الضّخم أم المضيّف الّذي يوزّع العصائر والفطائر. فهمت حينها لماذا استقال خالي مبكّرا من عمله كمضيّف في... في الخطوط الجوّيّة السّعوديّة! لم يعد يطيق سماع محرّكات الطّائرة ولا عادت تعنيه الجزر والمدن وناطحات السّحاب في نيويورك. بل إنّه لم يعد للسّفر مذ ترك العمل!

كنت أجلس حذو النّافذة. كلّ شيء يسبح في الظّلام. لكنّني تمكّنت من رؤية عظم الطّائرة عند الإقلاع. ثمّ إنّني خفت إذ بدا لي أنّ الجناح الهائل

الّذي كنت أراه بوضوح ما فتئ يميل يمنة ويسرة كأنّ الطّائرة ثملة. فهي تعلو تارة ثمّ تنخفض أخرى حتّى لتكاد تقع على الأرض أو هكذا خُيّل إليّ. وهدأتُ أخيرا حين أحسست أنّها بدأت ترتفع بشكل منتظم، هنالك تمتّعت برؤية العاصمة التّونسيّة فسيفساء جميلة من الأنوار الّتي تقطع بين الحين والحين ظلمة اللّيل البهيم.

بدأنا نتنسّم نفحات الإسلام مذ ركبنا في الطّائرة. هنا تسمع دعاء السّفر الّذي لن تسمعه في رحلة أخرى. أصوات رقيقة وثغور باسمة وذكر لله يبعث في قلوبنا الطّمأنينة. ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب!

حين وصلنا إلى المدينة وحطّت الطّائرة بسلام كنت في غاية التّأثّر حتّى أنّي رفعت يديّ رغما عنّي وشاركت الآخرين في التّصفيق رغم سذاجة الموقف. كانت المرّة الأولى الّتي أركب فيها طائرة من نوع آرباص مؤلّفة من طابقين كحافلات لندن الشّهيرة الحمراء.. حتّى أبي الّذي سافر مرارا قبلها لم ير في مثل حجمها. من أجل ذلك فرحت بوصولنا سالمين إلى مدينة الأنصار والمهاجرين. من أجل ذلك تأثّرنا إذ حططنا في مدينة السّلام ومعقل أوّل دولة أُسِّست في الإسلام وسُعدنا بقربنا من بيت خير الأنام. من أجل ذلك أينما أرسلت بصرك لم ترَ إلا وجوها متهلّلة ضاحكة مستبشرة.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[1].

وأخيرا ها نحن في المطار. لم أُضِع أيّ ثانية وقد بدأَت تجربتي للتّوّ.

(1) يونس، 58

وشرعت في دراسة العيّنة الحجازيّة الّتي كانت تتحرّك أمامي. كنت أطالع الوجوه الآسيويّة بِنهم، وجوه متعبة وأخرى يظهر عليها الملل بوضوح لا تسعى حتّى إلى إخفائه. وجوه تتابع هذه الموجة البشريّة التّونسيّة الّتي اقتحمت المكان بصخبها المعتاد. نظراتهم تشي بأنّهم متعوّدون على هكذا مشاهد. كنت أتخيّل استقبالا جميلا بالورود ووجوها باسمة لا يبدو عليها التّعب ولا الشّرود فما رأيت إلا التّثاقل والبرود. وكنت بسذاجتي الطّفوليّة أحسب أنّي في المدينة الفاضلة، حيث كلّ النّاس طيّبون ومبتسمون وفرحون. وفاتني أنّني لم أخرج من بلدي إلى الجنّة وإنّما جئت من بلد إلى بلد. وفي أرض الحجاز عاش الصّحابة الأبرار وعاش أيضا الغلاظ الشّداد من الكفّار. فلا مكان للسّذاجة المفرطة ولا لزقزقة الأطيار. ثمّ أنّي قد تعلّمت الدّرس بعدها بسبب تجربة من أصعب ما مرّ بي في حياتي.. المرفّهة!

حتّى المطار كان في غاية التّواضع، خاصّة إذا ما قارنته بخيالي الواسع الّذي صوّر لي قصرا من القصور الفخمة على طريقة البذخ الخليجيّ. فكان السّقوط مدوّيا. إذ أنّ المطار لم يكن فقط متواضعا بل قبيحا. فهمت بعدها أنّه مخصّص للمعتمرين والحجّاج، أو ربّما هو مخصّص لفئة معيّنة منهم والله أعلم. كما لفت انتباهي الزّيّ الموحّد للعاملين هناك. قميص وبنطال في اللّون الأخضر كلباس الجيش، لكنّهما يلتصقان بهذه الأجساد الّتي أفرطت في الأكل وما تحرّكت كثيرا على ما يبدو. ودُهشت كيف يُعقل في بلد يطبّق الشّريعة أن يعمل الموظّفون في أزياء ضاقت بها الأجسام؟ ليس جميلا ولا مهيبا ولا أنيقا مثل هذا الهندام.

لا بدّ أنّ المولعين بأفلام الخيال قد تفرّجوا على «حرب النّجوم»، أنا سأدعوهم إلى مشاهدة فيلم آخر لا يقلّ شراسة وضراوة اسمه: «حرب الأمتعة». كان عليك أن تخوض معركة حامية الوطيس للحصول على عربة تضع فيها أمتعتك. أعلنت لأبي أنّني سأقوم بهذه المهمّة الدّقيقة وتحمّلت تبعاتها. أذكر أوّلا بعض النّظرات الذّكوريّة الّتي حطّت على كاهلي فأثقلته. ولا عجب، فقد تعوّد العاملون هنا على رؤية العجائز والمسنّين ممّن قوّست ظهورهم الأعوام. أمّا أن تحلّ عليهم غادة في ريعان الشّباب وعلى قدر محترم من الجمال زادت عليه إطلالتها ببنطال من الدجينز وفستان يصل إلى الرّكبتين فهذا ما لا يرونه كل يوم. ألم أقل لكم أنّي جئت من بلد لا يحجّ فيه النّاس ولا يتولّون الرّئاسة إلّا إذا هرموا؟

وبعد، فقد صرخوا في وجهي لأنّني حاولت وضع حقائبنا في عربة. ربّما كان من الأفضل والأنسب أن أحملها فوق ظهري. ثمّ ماذا؟ ثم دفعوني وداسوا على قدميّ ولم يرحموا أصابعي الصّغيرة البريئة. كلّ هذا من أجل انتشال حقيبة تخصّهم مرّت على الحزام النّاقل.

لكن في وسط هذا العنف الصّاخب لاح فارس نبيل. هو رجل خفيف الظّلّ لطيف، كان رغم قصر قامته ودقّة عوده يساعد الجميع في الحصول على أمتعتهم. وقد سُعدت بتلقّي معونته فجزاه الله عني خيرا، ولولاه لتواصل مسلسل الرّكل والدّهس والشّتم والتّدافع المحموم.

كنت أحاول فقط مؤازرة أبي وعمّتي العجوز. فاندفعتُ بحماسة الشّباب لخدمة من هم أكبر منّي سنّا وأعظم عليّ حقّا وقدرا. وما ظننت أنّ مهمّتي

ستكون بتلك الصعوبة. كانت صدمتي كبيرة. ما بال رفاقي الطّيّبين اللّذين كانوا يصفّقون فرحا بوصولنا سالمين قد انقلبوا إلى أعداء متكالبين على عربة أو حقيبة بائسة. خاصّة النّساء! ما بالهنّ انقلبن من رفيقات باسمات إلى ساحرات شرّيرات؟ وأنت يا عمّتي العزيزة، ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ ما أكبرها وأثقلها! لم أكن أدرك حين نقلتها أنّني إنّما كنت أزحزح مطبخا مجهّزا بالكامل فيه طعام يكفي لشهر! كنت ألعب دور السّائحة المستكشفة، ولم يدر بخلدي أنّ السّفر متعب إلى تلكم الدّرجة، خاصّة بالنّسبة للطّفلة المدلّلة الّتي كنتها. أمّي، لمَ لم تخبريني أكثر عن صعوبة الحياة؟

* * *

الأقمصة الزّرقاء

المدينة المنوّرة، 19 مارس 2010

ما زلنا في اللّيلة الأولى في مدينة رسول الله ﷺ. خرجنا من «حرب البضائع» سالمين إلّا من بضع كدمات نفسيّة. صارت أمتعتنا في عهدة موظّفين من زمن جميل، زمن يتسابق فيه الرّجال لتعلّم السّباحة والرّماية وركوب الخيل. كانوا أقوياء أشدّاء يلبسون عمائم وأقمصة زرقاء. كان أحدهم يصعد على ظهر الحافلة والآخر يربط الحقائب بوسط حبل ثمّ يلقي به إلى صاحبه، حيث يتلقّفها بمنتهى السّهولة كما يتلقّف أحدنا الكرة! فما دريت هل أعجب لقوّة من يقذف تلك الأحمال الثّقيلة أم لخفّة من يستقبلها في الأعلى؟ قلت في نفسي: «هؤلاء رجال من زمن آخر، من زمن المصارعين. إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، طوال عظام مائلون إلى السّمرة، يعملون بلا هوادة.» التفتّ إلى الوراء، فرأيت حافلات أخرى يتحرّك فوقها جبابرة آخرون، يا للقوّة والبهاء! ليت كلّ العرب يعملون بمثل هذه السّرعة والفاعليّة!

وقفت أراقبهم بإعجاب حين لحظت امرأة عجوزا تصعد السّلّم البسيط الّذي يفضي إلى داخل الحافلة. رأيتها تنقل قدميها ببطء شديد بينما تتطاير فوق رأسها عشرات بل مئات الكيلوغرامات من الحقائب الثّقيلة! كان التّباين بين ضعفها وقوّتهم وبطئها وسرعتهم وثقلها وخفّتهم، صارخا إلى درجة جعلتني لا أملك نفسي من التبسّم.

حين ابتعدت الحافلة عن المطار كنت لا أزال أراقب الأشباح الزّرقاء

والسّواعد السّمراء وهي تعمل دون كلل ولا ملل. وإنّي قد لمست على محيّاهم سلاما وفي تقاسيم وجوههم بشرا وابتساما أنساني الوجوه المغلّقة الباردة التي رأيتها قبلُ بزيّها الأخضر اليابس. ابتعدت الحافلة لكنّي ظللت أتابع تلك الحركة الجميلة في جنح الظّلام، أتابعها بعينين ملؤهما المودّة والحنان. بل كانت نظرتي لهم نظرة فيها شيء من حنوّ الأمّ... لأنّني في داخلي أشفق على حالهم!

وماهي إلّا بضع دقائق حتّى وصلنا إلى «إقامة إلياس». لن نقيم في فندق إذن، بل في شيء هو أقرب إلى المبيت. قبل أن تتوقّف الحافلة، رأيت صوامع عالية تتألّق بنورها في غسق اللّيل. لم أدرك حينها أنّها صوامع المسجد النّبويّ بجماله الأخّاذ وبسحر من يأوي في روضته الّتي هي جنّة الدّنيا.

كنّا جميعنا في غاية التّعب إلّا أنّه وجب علينا التّسلّح بالقوّة والتّحلّي بالصّبر كيما نتحصّل أخيرا على مفتاح غرفتنا ومكان راحتنا وتحرّرنا من أعباء الأمتعة والمطبخ المتنقّل المتنكّر في شكل حقيبة سوداء مخيفة.

وقفت قليلا في الخارج أتأمّل المباني في سكون اللّيل بعيدا عن جلبة المسافرين. كانت اللّوحة المعروضة أمامي جديدة لم أرها من قبل: المباني الرّخاميّة الشّاهقة والطّرقات الكبيرة الواسعة والسّيّارات العريضة الأمريكيّة واليابانيّة، تلك الّتي لا نراها إلّا في الأفلام، والنّساء والرّجال الّذين يحثّون الخطى في اتّجاه مسجد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام. أحسست أنّني لأوّل مرّة في مكان مختلف تماما عن وطني، أخيرا تحقّق حلمي. أخيرا ركبت الطّائرة وخرجت من تلك الرّقعة الخضراء. ها أنّني أكتشف بلادا جديدة

وأحطّ الرّحال في آسيا العظيمة الّتي طالما سحرتني. ها أنّني أطأ بقدميّ أرضا غير الأرض الّتي ولدتني! ها أنّني أتنفّس هواء آخر جافّا بعيدا عن الرّطوبة في بلدي.

كم أحبّ اكتشاف الكون! أليست أرض الله واسعة فنسيح فيها؟ وهل هناك أطيب من الوجود في طَيْبَة وأمتع من السّير في طرقات المدينة المنوّرة؟ كنت أشعر بالإثارة والفرح، لكنّ فرحتي لم تكن تامّة. تمنّيت أن تشاركني التّجربة من شاركتني بطن أمّي تسع شهور. أمينة الّتي صارت زوجة وأمّا لكنّها بقيت أختي وصاحبتي وأقرب النّاس إليّ. ليتها كانت تقف هنا إلى جانبي، تطالع السّماء بعينين يلمع فيهما بريق الحلم ثمّ تأخذ بيديّ كي نكتشف العالم سويّا. شاءت الأقدار أن نكتشفه في العام الموالي إذ سافرتُ معها وزوجها وابنتها الرّضيعة وتقاسمت حجرتي مع آيتي الحبيبة في إسطنبول الجميلة العجيبة. وإنّها لذكريات.. تثير في النّفس آهات وزفرات والحمد لله ربّ العالمين.

وبعد أن استغرقت في عالم الجمال والخيال عدت إلى قاعة الاستقبال في إقامة «إلياس» حيث لا ترى إلّا التّعبَ على وجوه النّاس، والأمتعةَ مكوّمةً أكداسًا. كنّا ننتظر أن يتمّ توزيعنا على الغرف. كانت البناية مؤلّفة من أربعة عشر طابقا وقد رحمونا إذ وضعونا في الطّابق الثّالث عشر. على كلٍّ، ليس ثمّة أيّ إشكال فهناك المصعد الكهربائيّ وهو الحلّ في جميع الأحوال. يجب أن نسرع إذا أردنا اللّحاق بصلاة الفجر في المسجد النّبويّ فالمؤذّن يوشك أن يكبّر وينادي أن حيّ على الفلاح.

كانت هناك ثلاثة مصاعد: واحد مخصّص للنّساء وواحد للرّجال

والأوسط لذوي الاحتياجات الخاصّة. لا أتذكّر كم انتظرنا من الوقت قبل أن تطأ أقدامنا أحدها. لكنّني أذكر جيّدا أنّنا فوّتنا الصّلاة بسبب هذا التّعطيل. وهل جئنا إلّا إلى الصّلاة؟ لكنّها الحماقة نفسها والتّهافت والتّشاحن الّذي لم أر له مثيلا.

أخيرا وصلنا إلى غرفتنا. لم يكد يعجبني شيء فيها باستثناء الوسادة المريحة. الدّيكور جيّد لكنّ الأرضيّة غاية في القذارة. لم أصدّق أنّهم لم يكلّفوا أنفسهم تنظيف الغرفة قبل وصولنا. ما هذا الهراء؟ ما أبعدني عن فكرة الفندق النّظيف. ثم هل يجب عليّ أن آكل وأشرب وألبس وأنام في هذه الغرفة التي أتقاسمها مع شخصين؟ سنكون ثلاثة في هذه المساحة الصّغيرة؟ وأنا المتعوّدة على غرفة لوحدي خاصّة بعد أن تزوّجت أختي التّوأم. أنا الّتي ألفت الاعتكاف في عزلتي والانقطاع عن العالم؟ أنا الّتي عاشت في بيت من أنظف البيوت لأنّ أمّي تعشق النّظافة لدرجة أنّها لا تبالي بصحّتها وراحتها بل تجهد نفسها دوما في التّرتيب والتّنظيف؟ ثمّ إنّ المطبخ وبيوت الاستحمام تقع في الخارج. فيتوجّب عليّ أن ألبس حجابي كاملا كلّما أردت الاستجابة لأبسط حاجات الطبيعة أو التوضؤ بضع مرّات في اليوم؟!

كان أبي ضاحكا مستبشرا وكانت عمّتي في قمّة السّعادة ترفرف حولها الفراشات وتترنّم العصافير. أمّا أنا فبدأت بتقمّص الدّور الّذي ما أتقن غيره: سنفور غضبان. من ذا الّذي يصاولني في ميدان التذمّر والشّكوى؟ لا أحد. فجأة بدت لي غرفتي في تونس بعيدة جدّا! ونسيت أنّني ما جئت

للسّياحة والرّفاهة إنّما جئت أنوي العُمرة لله وأزور بيته زلفى. وجهلت قول الشّاعر الأندلسيّ:

لـكلّ شيءٍ إذا مـا تـمّ نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

❊ ❊ ❊

جوهرة المساجد

المدينة المنوّرة، 19 مارس 2010

أفقنا على أنوار يوم جمعة مبارك بالمدينة المنوّرة. لا أتذكّر ما جال في خاطري حينها. أذكر فقط أنّنا خرجنا سراعا نبغي مسجد رسولنا ﷺ وقلوبنا تختلج فرحا. أحقّا لا تفصلنا عن تلكم الجنّة إلّا بضع خطوات؟ أفعلا كلّ ما علينا هو أن نجتاز شارعين اثنين مشيا على الأقدام في أرض منبسطة مستقيمة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا؟ بلى!

كلّما اقتربت زاد انبهاري وافتتاني بما أرى. أسرني سحر المكان منذ اللّيلة الأولى وأخذتني إشراقة الصّباح والبنايات الشّاهقة الّتي تلمع تحت أشعّة الشّمس الدافئة، وهذه الطّرقات النّظيفة والأرصفة العريضة ومئات الوجوه الّتي صادفتني من مختلف البلدان والأصول والألوان. هذه المصريّة الّتي مرّت بجانبي وهذا السودانّي الّذي يحمل ابنه وبسمته، وهؤلاء الهنود الّذين يغذّون السّير وتلكم الأندونسيّات المارّات مرور السّحاب، كلّ الأعراق والأجناس، آسيا بكلّ ألوان الطّيف، ضيوف الرّحمن، إخواني المسلمون في كلّ مكان، جمعنا هذا المكان. كنت أسمع عنكم ولا أراكم إلّا في نشرات الأخبار أو في البرامج والوثائقيّات. الآن صار اختلافكم واقعا ملموسا وتنوّعكم مشهدا محسوسا. سُررت بمروري إلى جانبكم، سررت برؤيتكم رأي العين وبسماع لهجاتكم الحيّة بعيدا عن الأفلام والمسرحيّات. كان الطّريق إلى المسجد النّبويّ ينبض بالحياة. وسبحان من صوّر وخاطب بالآيات:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[1].

فعلا إنّها لآيات!

تناولتُ هاتفي والتقطت صورة فاثنتين فثلاثا ثمّ أخرى وأخرى ثمّ توقّفت... عن العدّ! كنت أدرك أن تصرّفي هذا يجعلني أشبه بسيّاح يابانيّين في باريس فهم لا يتوقّفون عن التّصوير في كلّ مكان. لكنّني واصلت وتماديت. أريد أن أخلّد هذه اللّحظات الأولى في أجمل مدن العالم. كان كلّ شيء يستهويني وأبسط التّفاصيل مرمى لعدستي، كلّ شيء استثنائيّ بالنّسبة لي. وهذه خصلة رافقتني حين ذهبت إلى تركيا ثمّ فرنسا فماليزيا، بل هي معي حين أركب سيّارة الأجرة عائدة إلى بيتي. تأخذني تلك اللّوحة الفنّية كلّ يوم: جمال البحر والقوارب الصّغيرة التي تتأرجح على شاطئه والأرض المنبسطة الخضراء الّتي تواجهه، لا سيّما وقت الغروب. جمال وأيّ جمال، وخالق يتجلّى بآياته صباحا مساء لكنّ قومي لا يرفعون رؤوسهم إلى السّماء، منشغلون عن الحياة بطلب العيش فلا يرون البهاء.. إلّا من رحم ربّي. قد أفسدتنا المدنيّة فلم نعد نرى الجمال في كثير من الأشياء!

لكنّ الجمال بلغ مداه في المسجد النّبويّ، جمال ذو سحر سماويّ. جمال بعدد الهائمين في متاهات جلاله، جمال بعدد الأشكال والألسنة والألوان. مازلت أتملّى خلق الله جلّ في علاه. أنظر إلى الأطفال الصّغار يرتدون البياض،

(1) الرّوم، 22

ملائكة الأرض تجري على أقدام البهجة والبراءة. مازلت أملأ العين من هذه الفسيفساء الإنسانيّة في أجمل وأكمل صورها. لم تفارق البسمة شفتيّ رغم أنّي في العادة قليلة الابتسام بَله الضّحك. كدت أستوقف النّاس وأستمهلهم لأبثّهم فرحي وجنوني. لأقول لهم كم أنا سعيدة برؤيتهم، بتلاقي العيون في لحظة خاطفة، بسماع همساتهم في خفقة عابرة. أنا سعيدة بكنّ أيّتها الجميلات الآسيويّات، أيّها الأتراك، أيّها الباكستانيّون، وأنت يا مصريّة وأنتم يا أهل إيران، وأنتنّ يا هنديّات وأنتم يا مغاربة، ويا إخواني من اليمن والعراق وسوريا وفلسطين، نعم فلسطين. أنا سعيدة بكم أجمعين وشاكرة لوجودي معكم ولتعرّفي على بعض ملامح العائلة الإسلاميّة الكبيرة.

أخذتني وجوهكم الجميلة باختلافها وتنوّعها، فسبحان من صوّرها. شدّتني ملامحكم قبل أن تسحرني رحابة المكان وجلال الزّمان. فنحن في يوم جمعة في مسجد رسول الله ﷺ يا إخوان! إليه تُشَدُّ الرّحال وبه تُشفى قسوة القلوب وينصلح الحال. هنا فسحة العبادة وراحة البال. لكن مهلا مهلا، طبيعتي النّقديّة (زيّفتُ التّاريخ فاستبدلتُ كافا بِقاف) أفسدت عليّ فرحتي برؤية النّاس على اختلاف أجناسهم وألوانهم. إذ قلت في نفسي: هؤلاء الآلاف بل عساهم ملايين، لا يساوون في ميزان الدّنيا جناح بعوضة. المسلمون مُستضعَفون في كلّ مكان، يتسابق أعداؤهم إلى الهجوم عليهم بالدبّابة وبالمؤامرة وبالإعلام. المسلمون مسجونون في أوطانهم لا تكاد تجد بينهم رجلا هُماما، حسن الفهم كثير العمل مقداما. المجوّدون أصواتَهم بالقرآن كثير وقليل هم المكبّون على كتب التّفسير. قلّما تجد بين

هؤلاء الملايين عالما فذّا أو أديبا أريبا أو صحفيّا لامعا أو فيلسوفا كبيرا أو فائزا بجائزة نوبل (مع تحفّظاتي على هذه الجائزة السّخيفة الّتي رفضها رجال عظام وقبلها صعاليك ومجرمون متخفّون بزيّ رسميّ وربطة عنق وابتسامة وقحة) أو سبّاقا في مجال الرّياضة. حتّى الكرة لم نفلح فيها! وصدقت الأغنية الّتي سمعناها ذات فاجعة: «وين الملايين؟».

بل صدق رسول الله ﷺ في حديثه عن ثوبان قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومِن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السّيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حبّ الدّنيا، وكراهية الموت». وإنا لله وإنّا إليه راجعون.

فجأة سمعت «الله أكبر» تدوّي في أرجاء المسجد. فسارعت بالبحث عن مكان أصلّي فيه. أمّا عمّتي فقد نجحت في الانضمام إلى صفّ من الصّفوف. وكنت أطلق بصري يمينا وشمالا بحثا عن موضع قدم يأويني إذ نادتني امرأة إلى جوارها. ويسّر الله لي مكانا في الصّفّ الأوّل من هذه المجموعة الّتي اختارت طرفا من أطراف المسجد المترامية. لقد أنقذتني هذه الطّيّبة وألقت عليّ ظلالا من الأخوّة فحمتني حماها الله من لهيب الشّمس الحارقة. وما كنت لأجد موقعا أفضل ولا جيرة ألطف.

قلت في نفسي: «لله ما أحلى الإيجابيّة وأيسرها». كم من مسلم يمرّ بجانب أخيه ويراه في ضيق فلا يفكّر في إنقاذه. قد يكون شجارا بين صبيّين يافعين،

وقد يكون تلاسنا بين سائقين في شارع مكتظّ وقد يكون رجلا يبحث لنفسه عن مكان ليصلّي فيه فلا يتزحزح أحد ويفسح له مجالا. فوا أسفي على مسلم تتمثّل أمامه فرص الخير والبرّ سهلة دانية قطوفها فلا يمدّ يدا إليها ولا إصبعا ليقطف من ثمارها الحلوة. بل إنّ أبي سيقصّ عليّ قصصا يندى لها الجبين يحكيها عن حجّه مع أمّي بعد العُمرة بسنوات. فمن النّاس من بلغت به الدّناءة والأنانيّة مبلغا جعله لا يتردّد في شغل حيّز كبير له ولمتاعه، ثمّ إذا ما سأله شيخ مسنّ منهوك القوى، أن يفسح له مجالا صغيرا ليجلس قال: أمتعتي! فشتّان بين من قال أمّتي، أمّتي، ومن قال أمتعتي، أمتعتي! صار حطام الدّنيا أفضل وأكرم من البشر. وأين ومتى؟ في الشّهر الحرام وفي البيت الحرام! الحجّاج كُثُر أمّا عن الأخلاق فلا تسل.

شكرت منقذتي بابتسامة عريضة لأنّني حين عبّرت لها عن امتناني لكرمها بالعربيّة، أدركتُ أنّها لا تفهم ما أقول. يبدو أنّها تركيّة.. مثلي! نعم لي أصول تركيّة وأنا سعيدة وفخورة بها رغم معارضة زوجي الّذي يزعم أنّ أصل عائلته يعود إلى اليمن. المسكين لم يزر تركيا بعد، سيغيّر رأيه لو رآها.

بدأت خطبة الجمعة، كان محورها المشاكل الزوجيّة وقد كُتبت بطريقة إنشائيّة منمّقة. كان الإمام يتحدّث بالعربيّة الفصحى، ويفصّل آداب التّعامل بين الأزواج بكلام موزون وكثير من السّجع. كنت أتمنّى أن يضفي بعض الحيويّة على خطبته الجامدة فيضرب بعض الأمثلة أو يسوق طرفة رقيقة أو يأتي بدعابة خفيفة، فذلك أدنى أن يُقبل على كلامه النّاس ويلامس شغاف قلوبهم. أليس أنّ الهدف في النّهاية هو الأمر بالمعروف والنّهي عن

المنكر وإصلاح البيوت وتعريف الحقوق؟ إذن فكلّ وسائل التّأثير مطلوبة. وينبغي ألّا تكون خطبة الجمعة نصّا إنشائيّا محضَّرا بعناية ومكتوبا على ورقة لا يخرج عنها الإمام قيد فاصلة. النّاس ليسوا في حاجة إلى خطاب بارد قد يجدون خيرا منه في الكتب والمصنّفات، النّاس بحاجة إلى كلمة مؤثّرة من إمام صادق يشعرهم أنّه في النّهاية إنسان، فيقترب من همومهم ويحرك مشاعرهم بالنّكتة والطّرفة ويشدّ انتباههم بالأمثال يضربها لهم وبالقصَص يتخير أجودها وأنفعها، فيقصّها عليهم وبتجاربه الشخصيّة يتقاسمها معهم. ولا ضير إن استعمل بعض الألفاظ من العامّيّة أو جاء بأمثال شعبيّة. ثمّ لا يكون صوته على وتيرة واحدة، فمرّة يعلو ومرّة ينخفض دونما تكلّف، وهذه من بديهيّات فنّ الخطابة والإلقاء.

وباختصار، نحن بحاجة إلى خطبة حيّة وليس إلى نصّ ميّت يلقيه الإمام كما يلقي التّلميذ محفوظاته على المعلّم. وما أحوجنا إلى الإمام الّذي يكون ضمير الأمّة النّاطق فيتكلّم في قضاياها الحارقة ويحسن فقه الأوّلويات ولا يخاف في الله لومة لائم...

لكن أعجبني الدّعاء في آخر الخطبة، كانت فيه تلكم الكلمات السّاحرة الّتي تحرّك القلب وتدمع العين، لا سيّما إذا كنّا في مسجد الرّسول الكريم ﷺ: «الأقصى» و «فلسطين»! آمين آمين.

قُضيت الصّلاة فانطلقنا مع أبي عائدين إلى مكان إقامتنا. وحين وصولنا إليه بعد دقائق قصيرة ونحن مستبشرون بيومنا الأوّل في مدينة الرسول ﷺ، إذ بنا نُصدم من هول الزّحام وشدّة الاقتتال على المصاعد. وهناك مرّة

أخرى برقت في خاطري تلك الفكرة السّخيفة السّاذجة عن المدينة الفاضلة حيث كلّ النّاس طيّبون ومتحابّون ومتسامحون. لن أنسى ما حييت تلك المشاهد المؤسفة لمسلمين كانوا لتوّهم يصلّون الجمعة في أقدس بقاع الأرض ويتّجهون إلى قِبلة واحدة ويدعون ربًّا واحدا ثمّ ما إن قُضِيت الصّلاة حتى ارتدّوا إلى الجاهليّة الأولى. فلا ترى إلّا التّدافع والتّدابر والتّشاتم والوجوه المغلقة والأنياب المكشّرة.

وما هالني أكثرَ هو تصرّف النّساء بالذآت. كنّ متجمهرات أمام المصعد المخصّص لهنّ في شكل كتلة آدميّة صاخبة. كنّ يتدافعن بالمرافق ويتبادلن السّباب والشّتائم ويرفعن أصواتهنّ دونما استحياء. بل وصل عدوانهنّ إلى محاولة الاستيلاء على المصعد المخصّص لذوي الاحتياجات الخاصّة وبلغ منهنّ العمى أن تشاجرن مع ذويهنّ. وفي هذه الأثناء كان الرّجال يصطفّون في خطّ مستقيم. يبدو عليهم الإنهاك لكنّهم صابرون. ينظرون بأعين حزينة إلى حرب النّساء ناقصات العقل والدّين والحياء. وددتُ لو أتبرّئ من جنسهنّ وأصطفّ مع الرّجال. أعرف أنّهم يرقبوننا بأسى قد يخالطه اشمئزاز ولسان حالهم يقول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله! لا أذكر أنّ أحدا منهم حاول تهدئة الوضع. تركونا لسخفنا نتناقر تناقر الدّجاج!»

بدت لي غرفتنا بعيدة جدا. لكننا وصلنا أخيرا ونقطة استفهام كبيرة تحوم فوق رؤوسنا. خاصّة أنا وأبي، أمّا عمّتي فهي طيّبة ومسالمة بطبعها، وهي أمّيّة وساذجة، فلا شيء يكاد يهمّها. لا تغضب كثيرا إذا سخر النّاس منها أو أساؤوا إليها ولا تفرح كثيرا إذا فرح النّاس. متوازنة في مشاعرها،

قليلة الشّكوى ممّا جعلها قويّة وصلبة أمام تجارب الحياة وهي الّتي ترمّلت في عزّ شبابها، إذ مات عنها زوجها في عمله الشّاقّ، بينما كانت حاملا بولدها الوحيد. وكان أصغر منها سنّا وأوفر جمالا، فكأنّ النّاس حسدوها عليه فترمّلت وهي في الثّلاثين من عمرها. قلت أنّها ساذجة لكن ليس إلى درجة البلاهة بل على العكس، إنّما هي من النّوع المحظوظ الّذي لا يهتمّ. ولو كان بالإمكان أن نحذو حذوها ونفعل مثلها لقلّت المشاكل في المحاكم والمرضى في عيادات الأطبّاء.

من أجل ذلك ما إن دخلنا غرفتنا حتّى انبعثت نشيطة مبتسمة تعدّ لنا مائدة الغداء. وكان طعامها شهيّا تمتّعنا بأصنافه اللّذيذة أسبوعين كاملين. وكان يبدو في ظاهره متنوّعا لكنّه في باطنه هو هو، وما غيّر إلّا تسريحة الشّعر أو طريقة التّقطيع ... تقطيع العجين طبعا. نعم، أكلنا جميع الأطباق التّونسيّة المعتمدة على الدّقيق الأبيض. فمررنا من الرّشتة نجارة والنّواصر والمعكرونة إلى الكسكسيّ والدّويدة وقتّ شعير وما لست أدري. القلوب هي هي والأسامي تغيرت ...

الآن أفهم أكثر سعادة عمّتي حين تعدّ لنا الغداء، إنّها سعادة الإنجاز. سعيدة هي بممارسة عمل تتقنه ويشغل وقتها فلا يعرف الملل إليها طريقا. سعيدة هي بسعادتنا ورضانا ونحن نتذوّق طعامها ونثني على نكهته اللّذيذة، سعيدة هي بأنّها قدّمت شيئا ينفع البشريّة. اكتشفت حينئذ أنّ عمّتي تجيد الطّبخ. وكانت تستعمل علبة الطّماطم المركّزة الفارغة ولا تستغني عنها في أيّ طعام تصنعه. فكانت تستعملها كوحدة قيس تضبط بها مقادير كلّ شيء.

أي أنّها كانت تلميذة نجيبة. أمّا أمّي فتلميذة ذكيّة بل أستاذة في الطّبخ. فهي تزن بميزان عينها المجرّدة ولا تستعمل «طاسة الطّماطم» إيّاها. وإنّ طعام أمّي لأطيب الطّعام وأجوده.

بعد الوجبة العائليّة اندسست في فراشي لأنال قسطا من الرّاحة. بل أخذتني سنة من النّوم كنت بأمسّ الحاجة إليها بعد ركوب الطّائرة وحرب البضائع وغزوة المصاعد. فما أتى اللّيل إلّا وكنت في أتمّ النّشاط والقوّة. واقترحت على أبي أن أذهب وحدي إلى المسجد النّبويّ لأحضر الماء. كنت أظنّ أنّني سأذهب وأعود بسرعة، فالمسجد قريب وأنا في عنفوان الشّباب، لكنّني أخطأت. أخذني سحر المكان في اللّيل ورأيت من حُسنه ما جعلني أهيم في رحاب جماله وأملأ العين من عظمته وبهائه حتّى امتدّ بي الزّمن وتوالت عقارب السّاعة في ركضها المحتوم. كنت أظنّ أنّي سأذهب في مهمّة لا تتجاوز ربع ساعة، فإذا بسحر المسجد النّبويّ يأسرني ويأخذني من نفسي وممّا حولي. فعدت إلى غرفتنا متأخّرة ساعتين. سامحني يا أبي!

* * *

سحر الابتسام

المدينة المنوّرة، 20 مارس 2010

لم أكن على ما يرام حين أفقتُ في صباح السّبت. جسدي منهك وظهري يؤلمني. أعدت شريط أحداث اللّيلة الفارطة. أذكر ذهابي لجلب الماء من المسجد ثمّ ارتمائي بين أحضانه الرّحبة ساعتين بالتّمام والكمال. أجواء اللّيل جميلة تذكّرني بجوّ بلادي في أوائل الصّيف. آلاف الحشرات تتجمّع على أرضيّة المسجد الرخاميّة الملساء اللّامعة وعشرات العائلات تتوزّع بين أركانه المترامية. نساء ورجال يتحلّقون وأطفال يلعبون. ضحكاتهم تنعش قلبي. اكتشفت في اللّيل دورا آخر للمسجد أذهلني، لكأنّه روضة من رياض الدّنيا أو ما يسمّونه بالحديقة العموميّة. هنا يجلس النّاس مع أطفالهم ويتركونهم يتراكضون ويتقافزون والحبور يملأ قلوبهم. سبحان الله! هذه سمة أساسيّة في ديننا: الإسلام دين واقع، ونبض حياة. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة». قالها للصّحابيّ الّذي أشفق على نفسه وشكّ في نفاقه لأنّه ضاحك صبيانه ولاعب زوجته بعد أن كان يستمع لوعظ رسول الله ﷺ عن النّار يرتجف قلبه.

نحن بشر، ولو أمضينا وقتنا في خشية الله وذكر ثوابه وعقابه لصافحتنا الملائكة. إنّما ساعة وساعة. ساعة لدنيانا نعمل فيها ونسامر النّاس ونلاعب الأهل والأطفال، وساعة لآخرتنا نخلو فيها مع ربّنا بركعات خاشعات أو تلاوة متدبّرة أو تفكّر في ملكوت السّماوات والأرض. فلا عجب إذن أن

يكون المسجد النّبويّ قبلة النّاس للصّلاة والذّكر والعبادة وأيضا للسّياحة في جماله والتّرويح عن النّفس والعيال. وكلّه خير إن شاء الله.

لا عجب أن أخذني سحر المكان وجمال الزّمان، جميل أن تسرّح ساقيك فوق الأرض المرمريّة وتجيل بصرك في دقّة الصّنع وتناغم الألوان. بديعة هي تلكم الأبواب العظيمة المذهّبة وساحرة هي اللّآلئ الّتي في السّماء مرصّعة. هناك في هدأة اللّيل يحلو التّجوال في محراب الجلال والجمال. المظلّات الكبيرة الّتي تقينا حرّ الشّمس في وضح النّهار باتت الآن خجولة منكمشة على نفسها كأنّها نائمة، مثلها كمثل نوع من الأزهار يتفتّح في النّهار ثم ينغلق في اللّيل. وكنت وأنا صغيرة أعجب لتلك المعجزة.

ارتديت جلباب أمّي الواسع. وفي محاولة يائسة لتحدّي المرض عزمت على الخروج مع أبي. لكن حين وصلنا إلى المصعد علمت أنّني لن أستطيع المضيّ قدما. فعدت أدراجي أحمل خيبتي إلى غرفتنا الّتي مازالت متّسخة. تلك الغرفة الّتي شهدت قبل سويعات موقفا في غاية الطّرافة، كلّما تذكّرته تبسّمت وحدي كالبلهاء. ذاك أنّني بينما كنت نائمة، إذ سمعت صوت رجل يقتحم علينا غرفتنا. كان يعمل في إقامة إلياس وظننت أنّه حضر لينظّف هذا المكان الّذي استقبلنا بقذارته منذ الوهلة الأولى. لكنّه لم يكن عامل نظافة أو على الأقلّ لم يأت شفقة على ساكني هذه الغرفة المتّسخة رغم جهودنا في ترتيبها وتنظيمها بما أوتينا من وسائل متواضعة. إنّما جاء المسكين ليبيع لنا شريحة هاتف نحن أصلا في غنى عنها. كنت لحسن حظّي مختبأة تحت الغطاء من أخمص قدميّ إلى أمّ رأسي. وسمعت الرّجل المسكين يجاهد ليُبِين

عن نفسه بعربيّته الفقيرة فقر جيبه المعدوم فهو، قوّاه الله، من عبيد القرن العشرين وهو الوجه الآخر لحقيقة صادمة واجهتني في رحلتي هذه سأقف عندها مرّات في هذا الكتاب.

أمّا أبي فلم يكن همّه أبدا شراء شريحة الهاتف إذ كنّا قد اشترينا واحدة. وإنّما همّه الوحيد هو أن يعمل مكيّفُ الهواء، فالحرّ هنا لا يطاق. أو هكذا بدا له. وهو من المولَعين بتشغيل مكيّف الهواء حال نومه ليلا أو نهارا. أمّا أنا فلا أحبّذه خاصّة إذا كان في وضع تشغيل قويّ. وقد تسبّب أخيرا في مرضي في سفرتنا هذه. صعب أن تقتسم غرفتك مع أناس يحوّلونها إلى ثلّاجة كبيرة في اللّيل!

كان أبي في موقف لا يُحسد عليه. فلم يكد يفهم ما يقوله الرّجل الماثل أمامه والمتشبّث بموقفه وبتبليغ رسالته النّبيلة: «أرجوك اشتر شريحة هاتف». حاول أبي أن يردّه ردّا جميلا وأن يُفهمه في نفس الوقت أنّ المكّيّف لا يعمل. كان وحده في هذه المعادلة الصعبة. لم أكن أستطيع التّكلّم أو إخراج رأسي من تحت الغطاء، أمّا عمّتي فلا يعوَّل عليها كي تفكّ طلاسم خطاب الرّجل الهنديّ الّذي يتكلّم بعربيّة فصحى لا تشبه العربيّة. وتواصل هذا الحوار البيزنطيّ العقيم وامتدّ صراع المصالح لبضع دقائق كانت كفيلة بإخراجي عن وقاري وهيبتي. إذ سبّبت لي نوبةً من الضّحك جاهدت نفسي كي أكتمها. تصوّروا أنّ الرّجل لم يزل واقفا، لا يكلّ ولا يملّ، بالنّسبة إليه مازال هناك أمل!

أحسست في عصر ذلك اليوم بتحسّن كبير. ساعات النّوم والرّاحة

جعلتني أستعيد قوّتي ونشاطي. فخرجت مع أبي وعمّتي... لنتجوّل في المسجد؟ لنزور غار حراء؟ لنطلّ على البقيع؟ لا بل خرجنا لنبدأ رحلة التّسوّق! أجل، مالكم كيف تحكمون؟ أما علمتم أنّني من تونس، من بلاد المغرب، من شمال إفريقيا، حيث تسود ثقافة التّسوّق في العُمرة والحجّ. حيث يكون واجبا عليك لزاما أن تشتري هدايا لمن عرفت ومن لم تعرف من العائلة الموسّعة. أجل يا إخوة، هذه ثقافة طاغية في مجتمعنا. والتّجّار في مكّة والمدينة يعرفون هذا جيدا. هم يدركون تميّز السّائح المغاربيّ، فهو ليس كالمعتمر التّركيّ أو الحاجّة الأندونسيّة مثلا. هو يمشي في الأرض ينوء ظهره بحمل أثقله به العرف وكبّلته العادة. أمّا أن تثور فلا تحمل هدايا إلا لخاصّة الخاصّة من أحبابك وذويك فأنت ستوصم ولا شكّ بالعجرفة والبخل الشّديد وقلّة الذّوق. وسيدرجون اسمك في كتاب البخلاء للجاحظ وستكون محلّ الغيبة والتّندّر ومثار الهمز واللّمز. وإنّه لبلاء عظيم نتوارثه جيلا بعد جيل. بل إنّي لأعرف من إذا نفدت عنه المسابح والزّرابي والأبخرة والعطور، اشترى حزمة خمارات من السّوق المحلّيّ فقط ليجد شيئا يهديه لمن جاءه مهنّئا بالعُمرة. إي والله حتّى لو كان هذا ضربا من الكذب الصّرف والتّحايل السّاذج الّذي لا ينطلي إلّا على المغفّلين.. لكن إنّما الأعمال بالنّيّات ولكلّ امرئ ما نوى.

نظرا لضخامة المشروع وحجم العائلة فقد بدأنا «الأشغال» منذ اليوم الثّاني. فاشترينا بعض الزّرابيّ الجميلة والملابس الرّجاليّة. وفي اللّيل صادفت أبي في مركز تجاري يحمل اسم «طيبة». وهو أحد المراكز المنتشرة قبالة المسجد

النّبويّ تحيطه إحاطة السّوار بالمعصم. وهناك دخلنا أوّل مغازة عرضت لنا. واشترينا، لا أقول جلبابا ولا ثلاثة، بل ثمانية جلابيب بالتّمام والكمال. وإن نسيت فإنّي لا أنسى الشّابّ السّعوديّ الّذي استقبلنا: ابتسامته السّاحرة وطيبته الّتي أخذت بمجامع قلبي. ثم إنه ناداني «يا دكتورة». لم أصدّق أذنيّ. كيف عرف أنّني أحلم بأن أواصل دراستي لأُصبح دكتورة. أعشق هذه الكلمة وأحلم بأن أُدرّس في الجامعة. طبعا سأُصدم فيما بعد بواقع بلادي وسأرتطم بجدار كسلي وقلّة احتمالي وأتخلّى عن ذلك الحلم الجميل بعد ما رأيت من أهوال الإهمال وأنا أحضّر رسالة الماجستير. ذاك الماجستير الّذي سيُحذف بعد سنوات قليلة بالنّسبة للمهندسين أمثالي. وطوبى للجيل الجديد يتخرّجون مهندسين ويشرعون مباشرة في التّحضير لرسالة الدّكتوراه. أمّا أنا فقد أتيت من الزّمن الجميل البديع حيث تترك عملك الأوّل لتواصل دراستك وتجاهد عامين ثم تخرج صفر اليدين من الشّهادة. لأنّ أخلاق العاملين في إدارة الجامعة مزرية ولأنّهم في آخر مرّة قالوا لك ليس لدينا ورق لنطبع الشهائد. إي والله هذا بالحرف ما قالوا!

أجبته: «إن شاء الله سأصبح دكتورة، لكنّني في الوقت الحاضر مهندسة وحسب». وما أتممت جملتي حتّى تعالت أصوات الشّاب وصاحب المتجر بالإعجاب والإكبار وأخذا يهنّئان أبي بألطف العبارات. كانا في غاية النّبل ودماثة الأخلاق. سأتعلّم فيما بعد أنّ هذه صفة عامّة في أخلاق التّجّار السّعوديّين بالمدينة، أخلاقهم عالية وطباعهم ليّنة وابتساماتهم عريضة. أليس قد استقبل أجدادُهم رسول الله ﷺ وشرعوا له قلوبهم وبيوتهم

وصدّقوه حين كذّبه النّاس ونصروه وآزروه حتى قال صلوات ربّي وسلامه عليه في قصّة مؤثرة حدّ البكاء: «اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»؟! فعلا إنّ التّجّار في المدينة غيرهم في مكّة، وإن تجّار مكّة لشداد غلاظ فلا ترى ابتسامة ولا لينا ولا إكراما. لا يقبلون المساومة في السّعر فإن اشتريت وإلّا فلا شريت.

وتبقى أوّل معاملة مع التّجّار في المدينة هي الأجمل، حيث طفق الرّجلان يسألاننا عن تونس الخضراء ولماذا سُمّيت كذلك؟ ومن حسن الحظّ أن تولّى أبي الإجابة لأنّني ما كنت أدري ما قصّة هذه التسمية الغريبة العجيبة. كأن يُسَمّى حيّ بحيّ الزّهور ثمّ لا ترى فيه زهرة واحدة، أو يُسَمّى آخر حيّ الانشراح فلا ترى إلّا التجهّم والوجوه المربدّة. ولله في خلقه شؤون.

وعلى ذكر الوجوه فقد أفسد عليّ بهجتي وجه تونسيّ لامرأة من المنستير جاءت لتزاحمني في المتجر. فما أن أمسك بجلباب حتى تتعلّق بتلابيبي وتكاد تفتكّه من يديّ. ثمّ هي فوق هذا تطلب منّي أن أجربّه لها. لأنّني، ويال حظّي، أشبه ابنتها وألبس مقاسها. وقد كنت أتحرّج من قياس الجلابيب لأنّه لم يكن هناك غرفة للقياس كما سأكتشف في بلاد الحرمين، إذ لا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها في غير بيتها. من أجل ذلك كنت ألبس جلبابا فوق جلبابي ورغم كلّ هذه الجلابيب فقد كنت أتحرّج من نظرات الباعة ولو كانت في منتهى اللّطافة والاحترام.

أخيرا قرّرت أنّني لن أدع هذه المرأة تفسد عليّ متعتي، متعة التسوّق مع أبي في طيبة. لمَ لا أعتبرها مثل أمّي؟ ثمّ أليست هي مواطنة تونسيّة مثلي؟

فأين روح التّضامن والتّعاون إذن؟ لكن دعنا منها ولنعد لتجّارنا الأعزّاء بالمدينة. لم أرَ في حياتي بمثل جمالهم ولطفهم ولباقتهم. ما أجمل لهجتهم وما ألين طباعهم. أولئك هم أحفاد الأنصار. مازالت كلمة «دكتورة» ترنّ في أذني، فوالله لا أنساها لهم.

* * *

أُحُد

المدينة المنوّرة، 21 مارس 2010

هذا يوم مليء بالوعود الجميلة والآمال العريضة. فقد كنّا نتأهّب للتّعرّف على بعض المزارات التّاريخيّة والدّينيّة، ومنها جبل أُحُد حيث دارت المعركة الشّهيرة بين المسلمين والكفّار، ومسجد قباء الّذي كان وجهة الرّسول ﷺ كلّ سبت. كلّ هذا جميل ومثير لولا تدخّل الإنسان. هناك من البشر من يأبى إلّا أن يفسد على غيره فرحته. كان من المفروض أن تبدأ رحلة الاستكشاف على السّاعة الثّامنة والنّصف صباحا، لكن بسحر ساحر تأخّرنا عن الموعد ساعة كاملة. وهذه من أكبر مساوئ السّفر الجماعيّ. نحن مشدودون بعضنا إلى بعض بسلاسل من حديد فلا يحسن أحدنا التحرّك والانطلاق بعيدا إلّا إذا تحرّكت المجموعة برمّتها. ويكفي أن يتغيّب واحد لقلّة اهتمامه بالمواعيد أو احترامه للنّاس حتّى نقف جميعا وقوف حمار الشّيخ عند العقبة.

أخيرا بدأت الرّحلة، وكانت فرصة سانحة للرّكوب في الحافلة الصّغيرة والتفرّج على شوارع ومباني المدينة. وفي بضع دقائق وصلنا إلى وجهتنا: أُحُد. وما إن نزلنا من الحافلة حتى شرع رئيس مجموعتنا، الّذي كان إماما، في سرد أحداث غزوة أُحُد العظيمة. وهي أحداث لها وقع خاصّ في قلبي مذ سمعتها للمرّة الأولى من فم أحد نجوم الدّعوة، حين كان في أوج عطائه وشهرته، الدّاعية الشّابّ الّذي يتحدّث بلهجة مصريّة محبّبة تأخذ بالألباب: عمرو خالد. طبعا سيهوي ذاك النّجم السّاطع بعدها بسنين. وسينتهي عهد

البراءة ويبدأ زمن الخيبات حين تهبّ رياح التّغيير في ربيع الثّورات. لكنّني أذكر جيّدا ذاك الدّرس وتلكم العبرة، قصّة أُحُد يمكن تلخيصها في كلمات: الفوز كلّ الفوز في طاعة الله ورسوله ﷺ والخسارة كلّ الخسارة في معصيته حتّى لو كان فينا أبو بكر وعمر.. ثمّ إنّ معصية الأفراد تأتي بالويل والثّبور على الجماعات. وإنّ المؤمنين لأعضاء لجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى.

أمّا القصّة لمن لا يعرفها فإنّ المؤمنين خرجوا لقتال المشركين بأُحُد. واختار رسول الله ﷺ خمسين رجلا من الرّماة ليتمركزوا على الجبل ولا يبرحوا أماكنهم كي يحموا ظهور المؤمنين. وقد أوصاهم صلوات ربّي عليه بألّا يغادروا مواقعهم سواء رأوا إخوانهم ينتصرون ويجمعون الغنائم أو يُقتلون ويُقَطَّعون تقطيعا. انطلقت المعركة، ورغم قلّة عدد المسلمين مقارنة بالمشركين فقد كانت لهم الغلبة لأنّ الله ناصرُهم بإيمانهم وطاعتهم وبـ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].. لكن مع النّصر تأتي الغنائم، وبينما فرّ المشركون إلى مكّة متخفّفين من الأمتعة والأحمال والأثقال تاركين دنياهم لينجوا بجلودهم، انبرى نفر من المسلمين للفوز بغنائمهم، لجمع دنيا المشركين الّتي تركوها خلفهم. فكانت مخالفة واضحة وصريحة لأوامر نبيّهم وقائدهم العسكريّ. وقد أعمت هذه الغنيمة أبصارهم فتخلّى أربعون رجلا من الرّماة عن مواقعهم ولم ينفع معهم نصح قائدهم عبد الله ابن جبير حين ذكّرهم قائلا: «أنسيتم ما أمركم به رسول الله» فقالوا: «الغنيمة الغنيمة».

(1) الأنفال، 17

فما مثلهم إلّا كمثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾[1].

فشربوا منه إلّا قليلا... وما أكثر ما شربنا وما أكثر ما عصينا ...

وكان خالد ابن الوليد آنذاك قائدا في صفّ المشركين يتحيّن الفرص ليخترق جيش المسلمين من حيث الرّماة مرّة بعد مرّة دون جدوى. فلمّا رأى أغلبهم تركوا الجبل قد فتنتهم الدّنيا فشربوا من نهرها، انقضّ كالصّقر على الفريسة السّهلة واغتنم الفرصة السّانحة ملتفّا بجيشه حول الجبل ليخترق صفوف الجيش المسلم من خلفه. وما كان ثغرا من ثغور الجهاد صار ثغرة ولقمة سائغة للاصطياد. ولم تنفع استماتة عبد الله ابن جبير وأصحابه واستبسالهم في الذّود عن حياض المسلمين، فكانت الخسارة وحدثت البلبلة وابتلي المؤمنون هنالك وزلزلوا زلزالا شديدا وشُجّ رأس النّبيّ ﷺ وكُسرت رُباعيّته وسال الدّم على وجهه الشّريف حتّى شاع أن محمّدا قد قُتل. وضُرب صلوات ربّي عليه في كتفه ضربة ظلّ يشتكي منها شهرا أو أكثر.

فانظر إلى مخالفة أربعين رجلا كيف تسبّبت في إيذاء نبيّ واستشهاد سبعين صحابيّا. أربعون رجلا عصوا أمر نبيّهم فتحوّل النّصر خسرا واليسر عسرا. فكيف بأمّة تعصي الرّسول ليل نهار إلّا من رحم ربّي ومن اصطبر. وما بالنا لا نقرأ التّاريخ ومالنا لا نعتبر؟

(1) البقرة، 249

كانت هذه الأفكار تجول في رأسي وأنا أطالع من بعيد الموقع الّذي دُفِن فيه سيّد الشّهداء وأسد الإسلام حمزة بن عبد المطّلب عمّ الرّسول ﷺ وأخوه من الرّضاعة وصاحبه وحبيبه. وما كان أشدَّ حزن رسول الله ﷺ على فقده يوم أُحُد. يوم مليء بالدّروس والمحن والأهوال والأحزان، لكنّ العاقبة للمتّقين. فجأة ردّني صياح الباعة إلى نفسي وكنت قد سافرت مع أحلام اليقظة أتخيّل الصّحابة وأرهف السّمع علّي أسمع صوت السّيوف وتشابك الفرسان.. عدت إلى موقعي وحقيقتي، فأمامي بعثة من المعتمرين وإمام يخطب وباعة ينادون على بضائعهم المتنوّعة ومن بينها العجوة. شرع قائد مجموعتنا يحكي لنا عن فضائل هذا النّوع النّفيس من التّمور ويعدّد مناقبه مستندا إلى السّنّة النّبويّة، حيث أنّ تناول سبع حبّات من العجوة في الصّباح يحمي من الأمراض ويبعد السّحر ويطيل العمر. فما كان من الباعة إلا أن رفعوا في سعرها مباشرة وعلى الهواء، كيف لا وهذا رجل تونسيّ يوفّر لهم إشهارا إسلاميّا مجانيّا.

كان يوما جميلا ودرسا تاريخيّا عظيما ليتنا تعلّمناه صغارا كيما نعمل به كبارا.. لكنّ المدارس.. لكنّ المدارس... هي نكسة أخرى.

* * *

وقاحة

المدينة المنوّرة، 22 مارس 2010

أمضينا يوما عاديّا مريحا ما بين مسجد ومتجر، ما بين صلاة وتسوّق، نتأرجح بين آخرة ودنيا.. فحتّى هناك، في أقدس بقاع الأرض، ما إن تبتعد بضع خطوات عن المسجد حتى تطالعك الدّنيا بفتنها وزخارفها وأضوائها... هناك حيث المراكز التّجاريّة الضّخمة والسّلع الشّرقيّة والغربيّة والباعة الّذين يتقنون فنّ التّجارة ويتوارثونه جيلا بعد جيل.

تناولنا فطور صباح من أطيب ما يكون الطّعام: زيت زيتون تونسيّ وكسرة خبز وقهوة وسبع حبّات من العجوة اللّذيذة كأنّها الحلوى. هذا ما أسمّيه على بساطته إفطارا ملكيا. انطلقنا بعدها أنا وأبي لنكمل مهمّتنا الثّقيلة النّبيلة: التّسوّق من أجل الأحباب والأصحاب... سرور ندخله على قلب مؤمن.. أو هكذا نرجو.

أمّا عمّتي فصارت قليلة النّوم قد أعياها السّهاد كما نراه يحصل عند بعض المسنّين. حتى أنّها على حدّ قولها تنام ليلة ويجافيها النّعاس أخرى. من أجل ذلك قد تبدأ أحيانا بتحضير الطّعام في الصّباح الباكر.. فتراها منذ الفجر والغرفة لا تزال تسبح في خيوط اللّيل الأخيرة قد فتحت باب الثلّاجة وبدأت تبحث وتنقّب عن كنوزها الحمراء والخضراء والصّفراء من طماطم وفلفل وبطاطا. وفي بحثها المحموم هذا تُحدِثُ الكثير من الجلبة وتطيّر النّعاس عن الأجفان المتعَبة. وبينما السّكّين في يدها وهي تهمّ ببدء الأشغال،

إذ بأبي يناشدها بالماء والملح وأخوّة الرّضاعة الّتي بينهما أن تؤجّل مهمّتها المقدّسة إلى وقت آخر. فقد كان هذا الوقت بالذّات محبّبا جدّا إليه، ففيه ينام وينال قسطا من الرّاحة، تلك الرّاحة اللّذيذة الفاخرة الّتي لا تُصنع إلّا في مصانع التّعب وعلى أيدي الكادحين. فبعد قيام اللّيل الطّويل والتّسبيح والذّكر وصلاة الفجر، لا بدّ للبدن أن يرتاح كي يتقوّى على طاعة الله... فكانت المسكينة تضحك من ضيق صدر أخيها بها وقلّة صبره عليها ثم تُغمد سكّينها آسفة وتفارق قِدرها وخضرها وتعود إلى فراشها وهي لا تدري ما تصنع بوقتها. هناك تجلس ساهمة هائمة ثم لا تلبث أن تستلقي بدورها لعلّ سنة من النّوم أن تأخذها وتريحها من مشقّة الانتظار وعبث الفراغ. وكثيرا ما يحدث هذا بالفعل.

في المصعد كان التّشاجر والتّقاتل يحتدمان، لا سيّما عند اقتراب موعد أذان الصّلاة، وصار هذا المشهدُ على قبحه أمرا روتينيّا لا حاجة للتّوقّف عنده. كنت أحيانا أترك عمّتي تنتظر دورها وأنزل آلاف الدرجات في خفّة واندفاع. فأنا لا أحبّ الانتظار أبدا ولا أقوى عليه. بل أعشق الحركة وأهوى المغامرة، تشتعل في عروقي دماء الشّباب وتهزّني هزّا (سأكتشف لاحقا أنّ لهذا المرض اسما وهو «متلازمة قلّة الصّبر» بل انعدامه). كان عليّ أن أنتظر نزول عمّتي في قاعة الاستقبال ثم آخذ بيدها وأتبع خطواتها الثّقيلة وأنا أصبّر نفسي وأتحسّر على عدم تمكّني من الانطلاق بسرعة البرق نحو مسجد الحبيب المصطفى. وكان هذا امتحاني واختباري.. كان امتحانا لي في الصّبر، ويعلم الله أنّي لا أمتلك منه إلا النّزر القليل وهذا من أعظم عيوبي ومساوئي. فما أحوج

الإنسان إلى الصّبر في رحلة الحياة الطّويلة المضنية، كلّ شيء في جوهره يحتاج إلى صبر، حتّى الفرح والنّجاح ومتع الدّنيا.. أنت تحتاج إلى الصّبر في كلّ أمور حياتك. فلولا الصّبر لما خشعت في الصّلاة ولولا الصّبر لجهلت عند الخصومة ولولا الصّبر لما أحسنت رعاية أولادك وتربيتهم ولولا الصّبر على الدّراسة لما نجحت في الامتحان... الصّبر جمع الخير من أطرافه. وكم نحن بحاجة إليه خاصّة في أيّامنا هذه وفي أوطاننا الّتي هي في حدّ ذاتها ابتلاء...

كان عهدي بعمّتي أنّها امرأة نشيطة تنهض باكرا وتشتغل بهمّة في أعمال البيت.. كانت هذه صورتها العالقة بذهني مع فارق التّوقيت.. كنت قد نسيت أنّ الزّمن يمضي وساعة العمر لا تتوقّف في جريها المحموم نحو النّهاية الحتميّة.. كنت قد نسيت أنّ عمّتي لم تعد كهلة في الخمسين من عمرها بل أصبحت عجوزا في الخامسة والسّبعين ربما، وتلك سنّة الله في خلقه، إذ جعل من بعد قوّة ضعفا وشيبة. كما أنّها منذ صغرها تشكو من قَدَم أقصر بقليل من قدمها الأخرى. فلا عجب أن تصبح خطواتها ثقيلة ومشيتها بطيئة وهي الّتي أمضت السّنين تعين كنّتها في أهوال (ولا أقول أعمال) البيت وتربية العيال. كانت تنفق من صحّتها وشبابها بلا حساب. فهي نشيطة بطبعها لا تحسن فنّ الاسترخاء والكسل، وهو ما سيتسبّب لها في كثير من المشاكل. فكم من مرّة أبت إلّا أن تزور أختا أو جارة فوقعت في الدّرج وشجّت رأسها أو لوت ساقها، فكأنّها على موعد دائم مع الطّبيب... كنت أعرف أنّ هذا امتحاني لينظر الله كيف أعمل، أأصبر الصّبر الجميل أم أصبر تارة وأتذمّر تارة أخرى. يبدو أنّني من الصّنف الثّالث...

بعد صلاة العشاء وفي طريق العودة إلى إقامتنا دلفنا إلى متجر يبيع كل أنواع الأكسسوارات والحليّ والألعاب. فوقفت عمّتي تتفرّج منبهرة وهي في قمّة الحماس والسّعادة، فالمسكينة غير متعوّدة على الزّخارف والبهرج والزّينة. وما كان أشبهها بطفلة صغيرة في متجر فخم للألعاب. فاضطررتُ إلى أن أنتحي جانبا وأنتظرها. وفي انتظاري هذا شعرت بعينين نهمتين تلفّانني بنظرات ثقيلة وقحة. وتأكّد شعوري هذا حين اقتربت لأجرّب بعض الأساور فسارع البائع بوضعها على يديّ متعمّدا أن يلمسني ويلصق يده بيدي. فعلها مرّة بعد مرّة، وكنت في حالة من الذّهول وعدم التّصديق، لكن سرعان ما تحقّق حدسي وثُبت إلى رشدي. هذا الثّقيل قد تجاوز حدود اللّباقة معي. رأيته يطيل النّظر إليّ بعينين تنضحان خبثا ودناءة كأنّه يحاول أن يستشفّ ما وراء حجابي. ورغم أنّي كنت أرتدي عباءة أمّي الكبيرة الفضفاضة إلا أنّني أحسست كأنّني عارية. فرددته بحزم وقلت أنّي لست بحاجة إلى إكسسواراته المزيّفة فهي تسبّب لي حساسيّة في الجلد (وكانت هذه حقيقة خبرتُها في عُرس أختي). فما راعني إلّا أنّه صاح وقد فقد كلّ سيطرة على نفسه: «طبعا أنت لا تتحمّلين الحليّ المزيّف، ما يلزمك هو الألماس، هذا ما تستحقّينه، بل أكثر منه.»

قالها وابتسامة لئيمة على محيّاه ممّا أثار اشمئزازي فشعرت كأنّني في فخّ أبتغي الخلاص ولا أجد إليه سبيلا. وأحسست بغياب أبي وبأهمّيّة أن يكون للمرأة مرافق من الرّجال خاصّة في السّفر. ثمّ صُدمت حين صادفت الوقاحة وقلّة المروءة هنا في أقدس بقاع الدّنيا. وكنت لسذاجتي أحسب أنّ

سكّان المدينة ومكّة هم الملائكة يمشون على الأرض، فكيف يُعقل أن يُعصى الله على موضع قدم من بيته. طبعا كنت يافعة وساذجة بل وغبيّة. فالبشر هم البشر.. المكان لا يصنع المعجزات ولا يحوّل الصّعلوك إلى نبيّ. الفطرة السّليمة والتّربية القويمة ومجاهدة النّفس الأمّارة بالسّوء، هذا ما يصنع من الإنسان مؤمنا صادقا حقّا وليس مجاورة بيت النّبيّ ﷺ أو الكعبة الشّريفة.. وسبحان من قائل: «قد أفلح من زكّاها».

رجوت عمّتي أن نخرج من المتجر بسرعة. كنت أريد الهرب وكانت تريد البقاء لتتفرّج على الألوان والأضواء. توسّلت إليها وألححت عليها فانصاعت إلى رجائي. لكن ما إن خرجنا حتّى بادرني بائع ثان وعرض عليّ أن ألقي نظرة على بضاعته، وحسبته عمّتي يتحدّث إليها فما كان منها إلا أن هرعت إليه وتعلقت بساعده فرحة جذلة وتركتني أجاهد نفسي كي لا أنفجر بالضّحك خاصة وأنا أرى ابتسامة مُحرَجة ترتسم على وجه التّاجر الشّابّ.

لم أستطع النّوم في تلك اللّيلة، ما زال الذّئب يلاحقني بنظراته الجائعة، أرى عينيه في الظّلام، كان شابّا سعوديّا أسمر، ربّما أعجبه هذا اللّحم الأبيض المتوسّط، فبنات بلده لا يكشفن وجوههنّ وأيديهنّ مثل هذه الشّابّة التّونسيّة الخرقاء.. نعم كنت خرقاء وبلهاء وغضبت ألف مرّة على نفسي وقرّعتها قبل أن أغضب عليه هو، ذاك الوقح السّمين. كان يتلذّذ بإحراجي، نعم تلك هي لذّته: يبيع سلعته ويعاكس البنات.. وما أدراني لعله متزوّج بمثنى أو ثلاث ولا يملأ عينه إلّا التّراب. أو لعلّه أعزب لا يملك نفسه أمام الأنثى. أخيرا

في تلك اللّيلة غفرتُ له ودعوت الله أن يُصلحه ويهديه سبيل الرّشاد. لكن هل غفرت لنفسي ذاك التّغافل الأهوج والتّساهل الأعرج؟ لا أتذكّر.

* * *

تحت المطر

المدينة المنوّرة، 23 مارس 2010

كان يوما صعبا مكتظّا بالمهامّ مليئا بالتّعب والجري اللّذيذ ما بين صلاة وإلى صلاة. فالصّلاة الّتي هي قوام الدّين وعموده تأخذ حجمها الحقيقيّ في هذه البقاع المقدّسة، تصبح هي محور اليوم وجوهرته النّفيسة، وفي فلكها تدور أحداثه وتتمدّد في الزّمان والمكان. هنا في مسجد رسول الله ﷺ يطول السّجود ويطول التشهّد ويطول الدّعاء. ثمّ دائما وفي كلّ الأوقات هناك الصّلاة على الأموات نساء ورجالا وأطفالا. فكيف لا يخشع القلب وتدمع العين ونحن نصلّي والمطر ينزل علينا كأنّما يغسلنا من بقيّة باقية من الأدران، فنهر في الأرض ونهر في السّماء وفيهما نغتسل فهل لذنوبنا بعدها من بقاء؟

قال ﷺ: «**أرأيتم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحدِكم يغتسلُ منهُ كل يومٍ خمسَ مراتٍ. هل يَبقى من درنِه شيٌء؟**» قالوا: لا يَبقى من درنِه شيٌء. قال: «**فذلك مثلُ الصلواتِ الخمسِ؛ يمحو اللهُ بهنَّ الخطايا**» (أخرجه البخاري ومسلم).

نعم إنّها تمطر في المدينة المنوّرة، إنها تمطر مطرا قويّا عنيفا مهيبا قلّما نراه في جوار رسول الله ﷺ في هذا الوقت من السّنة. أحبّ هذا المطر لأنّه حديث عهد بربّه ينهال على رأسي بكلّ جماله وهيبته. أعشقه وأتعرّض لقطراته السّخيّة ولا أهرب منه بل أستقبله... كانت تلك من أجمل لحظات حياتي وأكثرها إثارة، فقد اجتمع جلال الزّمان مع جلال المكان والطّبيعة، فالمطر يهطل غزيرا والرّيح تعوي وتصفّر. وهذا مسجد من أجمل مساجد الدّنيا،

زاده الماء سحرا وألَقا. لكن سرعان ما انقطع البثّ... انقطعت الأجواء الرّومانسيّة واللّحظات السّحريّة حين جاءني صوت عمّتي أو سوطها يقرّعني، فوبّختني وعاتبتني وجرّعتني الملائم حتّى وددت لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعتني. وما ذنبي سوى أنّي تركتها وانطلقت مع أبي لزيارة الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم في البقيع. ونظرا لبُعد الشّقّة وطول الطّريق فقد داهمنا الأذان لصلاة المغرب وتغيّر الجوّ، فمن شمس ساطعة في قبّة زرقاء إلى غيوم ورياح وأنواء ثمّ ظلام بدأ يلفّ الأرض والسّماء. وفي الأثناء جاء مسؤول في المسجد وطلب من عمّتي أن تبحث لها عن مكان آخر لتمكث فيه، حيث أنّها كانت جالسة في مكان مخصّص للرّجال. وهكذا يا إخوان تظافرت الجهود وتكتّلت الطّبيعة ضدّي وتآمر الإنس والجانّ. فتحوّلت عمّتي في آن من امرأة طيّبة كظوم إلى عجوز شمطاء حيزبون. وكان مشهد اللّقاء بعد طول الغياب مؤثّرا أيّما تأثير، حتّى أنّ النّاس جعلوا يمشون ويتلفّتون، ثمّ يعجبون لمنظر هذه العجوز الغاضبة الهادرة والشّابّة الآسفة المحرَجة الّتي تجاهد كي تطفئ الحريق وترسم على محيّاها ابتسامة خرقاء... وقد يتساءل البعض: أين أبي في كلّ هذا؟ لَم يتركني دائما وسط الزّحام أجابه شجار المصاعد وزوابع العجائز الّذين أعيتهم السّنون؟ أبي يا سادة إذا ما سمع الأذان ذهب لا يلوي على شيء، فمكانه مع الرّجال في الصّفّ الأوّل إن أمكن ومكاني وعمّتي مع النّساء. ألا يبدو لكم الأمر معقولا إلى حدّ ما؟

حسن يا عزيزتي، يبدو أنّنا سنؤجّل القُبَل والأحضان إلى وقت لاحق إذا أردنا اللّحاق بالصّلاة والفوز بمكان داخل المسجد حيث السّجّادات

المفروشة والزّرابيّ المبثوثة. لكنّ المتاعب بدأت منذ الباب: فعليه فتيات واقفات وقوف اللّبؤات في الثّغور يلبسن السّواد ولا يسمحن فيما بدا لي بالهواتف المحمولة خوفا من التقاط الصّور أو ما لست أدري! وفي حركة بهلوانيّة صغيرة قمت بإخفاء هاتفي في كمّ ثوبي في اللّحظة الأخيرة. وفتّشت اللبؤة اليافعة حقيبة يدي فلم تجد شيئا، فأحسست بما يحسّ به ماريو إذا وصل إلى قصر الأميرة. وسررت بنجاحي في تخطّي الصّعاب واجتياز العواقب. ودخلنا!

وهالنا الازدحام وسط المسجد، كان عليّ أن أجد مترا مربّعا واحدا شاغرا لأداء الصّلاة، كانت تبدو مهمّة مستحيلة. ثمّ ما هذا الرّضيع الّذي يرقد على الأرض ومن أين أتى؟ وفي حركة خرقاء متسرّعة، حاولت المرور من فوقه. فأوقفتني لبؤة أخرى وهي أمّه. وكشّرت عن أنيابها ورشقتني بنظرات ناريّة. ولقّنتني درسا في حسن السّلوك وآداب المرور حذو الرضّع المبثوثين على سجّادات المصلّين. حيث أنّه كان عليّ الاستئذان منها، وكانت ستحمل ولدها وتفسح لي المجال كي أمرّ. وأشعرتني في المحصّلة بأنّني صعلوكة أعرابيّة قذرة. وأنّني اقترفت جريمة ضدّ الإنسانيّة. عذرا يا سيّدتي، سامحيني وإنّي لأعوذ بالله من سخطك وغضبك. كان الموقف المحرج الثّاني في ليلتي هذه حتّى أنّي تساءلت هل من مزيد؟ هل هناك دعاوى أخرى في حقّي أم أنّه بإمكاني الرّجوع إلى البيت سيّدي القاضي؟

أخيرا، وجدت مكانا لي وآخر منفصلا لعمّتي ورفعت عينين مأخوذتين بجمال السّقف وروعة الزّخارف وتناغم الألوان في الزّرابيّ والجدران وكلّ

ما تقع عليه العين. وكانت هناك خزّانات صغيرة ملئت بماء زمزم، وهي كلمة لها موسيقى خاصّة في أذني المتعطّشة لكلّ ما هو من التّراث الإسلاميّ. وكان جمال المسجد من الدّاخل يوازي جماله من الخارج، كان كلّ شيء فيه يعبق بآيات الغنى والتّرف والذّوق الرّفيع.

قُضيت الصّلاة فقفلنا راجعين إلى غرفتنا وتناولنا العشاء. هناك أرحت بدني قليلا ثم يمّمت وجهي شطر المسجد النّبويّ من جديد. كنت وحدي هذه المرّة. وكان المسجد على بعد شارعين صغيرين من إقامتنا. كنت حرّة طليقة وشعرت كأنّني طائر يرفرف بجناحين من قوّة وشباب. يهوي فؤاده إلى بيت رسول الله ﷺ.. ذهبتُ، بل طرتُ على قدميْن من ريش لملاقاته. كنت على موعد روحيّ وتاريخيّ معه.. كانت اللّحظة الّتي طالما انتظرتُها.. وكانت الخيبة الكبرى على مستوى آمالي وأحلامي.. هرولتُ إليه هرولة. ومشيت مشيا طويلا على أرض مبلّلة. وبسبب جهلي وقلّة حيلتي التففت حول كامل المسجد لأنّني ظننت أنّ الطّريق لزيارة رسول الله ﷺ على يميني بينما هو على شمالي، وتلك غلطتي. لكن لا بأس، المشي في اللّيل بعيدا عن الشّمس الحارقة لا يضيرني. وكلّ خطوة نخطوها شوقا إلى الله ورسوله ﷺ هي شرف لنا. لكن، وبعد الرّحلة الطويلة والآمال العريضة، لم أجد بُغيتي..

كنت أحسب أنّني سأرى رأي العين قبر رسول الله وقبرَي صاحبيه، أبي بكر وعمر، لكن ما رأيت إلا سقفا وما اكتحلت العين إلّا بسياج كالجدار اتّخذته بعض ناقصات العقل والدّين كحائط المبكى عند اليهود. ورأيت تمسّحا وتزلّفا وشركا بالله في بيته وبجوار رسوله ﷺ ومعلّم النّاس الخير

والعبوديّة لله وحده، فلا نافع إلا الله ولا ضارّ إلّا الله وهو الرزّاق ذو القوّة المتين.

نعم أردت رؤيتك يا رسول الله، لكن لم أر إلا سُقُفا مزخرفة وأسماء منقوشة بالذّهب هي أسماء خير خلق الله وصاحبَيه الوفيّين، وما أسعدهما بجواره ويا لها من جيرة. نعم هذا كلّ ما رأيت. ولو أنّني علمت من قبل لتهيّأت لمثل هذا، أمّا وأنّني لا أعلم، فقد كانت خيبة أملي عظيمة. سيّما وقد علمت أن للرّجال منفذا أفضل بكثير لزيارة رسول الله. وللمرّة الثّانية في هذه العُمرة تمنّيت لو كنت رجلا. وغبطتهم، بل وحسدتهم حسدا شديدا. وتساءلت مغضبة حانقة لمَ لا يُسمح للنّساء بزيارة رسول الله ﷺ من نفس الطّريق الّذي يمرّ به الرّجال رغم أنّ ساعات الزّيارة للنّساء والرّجال منفصلة تماما؟ هذا ليس عدلا، هذا ظلم كبير. أنا أعلم أنّ حبيبي رسول الله ﷺ وراء هذا السّياج الخشبيّ العالي. وأعلم أنّني محظوظة لقربي منه، لكنّني كنت أمنّي النّفس برؤية قبره والوقوف عند رأسه، كثير من المشي ودهر من الانتظار وآمال تناطح السّحاب من أجل أن أرى جدارا خشبيا؟ يا خيبة المسعى!

أخيرا قلت: «يا نفس قد أكرمك الله بالوقوف في الرّوضة الشّريفة، هذا هو الفضاء الممتدّ بين بيت رسول الله ﷺ ومسجده فاحمدي الله وهلمّي ويحك إلى التضرّع والدّعاء.» نعم خاب أملي، لكن استشعرت السّعادة أخيرا، سعادة القرب منه والأنس به.. فانصرفت إلى الصّلاة. ورغم الموج المتلاطم من النّساء من كلّ اللّغات والجنسيّات، جاهدت كي أضع جبهتي على الأرض وأمرّغ وجهي في «تراب» الروضة الشّريفة وألححت في الدّعاء.

لا أذكر اليوم ماذا طلبتُ من الله، ربّما «فقط» الدّخول إلى الجنّة والنّجاة من النّار... ولم أبال أبدا بالجلبة ولا بالصّراخ والبكاء ولا بعشرات الأقدام التي تحوم من حولي تكاد ترفسني وأنا المنكبّة على أحلى سجدة يمكن للمرء أن يسجدها لله. بل صلّيت وأطلت الصّلاة ما استطعت، نعم كان عليّ أن أستثمر كلّ لحظة من هذه اللّحظات، فما كلّ يوم نجاور رسول الله. إن هي إلّا مرّة أو بضع مرّات في الحياة...

دعوت الله ما استطعتُ ثم انسحبت. قد تأخّر الوقت وكان عليّ خاصّة أن أُفسح المجال لغيري. فالمسلم أخ المسلم، ولا مجال في ديننا إن فقهنا، لأنانيّة أو غرور. كان عليّ أن أعود إلى إقامتنا، إلى تلك الغرفة المتواضعة التي ألِفتها. وعندما خرجت من الرّوضة، ومع كلّ خطوة خطوتها بعيدا عنه، كان سكّين الفراق يغوص في قلبي ويقطعه، ولفّني الحزن في غلالة سوداء وقد أحسست كأنّني تخلّيت عن رسول الله ﷺ، فكيف أتركه وأذهب بعيدا عنه.. كيف؟ تساقطت الدموع من عينيّ وتابعت السّير وأحسنت لنفسي العزاء: غدا سأعود بإذن الله.

* * *

انتبهي إلى خطوتك

المدينة المنوّرة، 24 مارس 2010

اتّصلت بنا أمّي في الصّباح الباكر، فاليوم عيد ميلاد أبي. وقد نسيته تماما. فأبي لم يكن يعير أيّ اهتمام لعيد ميلاده ولا حتّى لعيد ميلاد أيّ منّا، ويبدو له الاحتفال به عادة غربيّة ذميمة وتقليدا أعمى. انتوينا في برنامجنا اليوم الذّهاب إلى التّسوّق كالعادة رغم تراجع اليورو. وكان حريّا بنا أن نحوّل مالنا من الدّينار إلى الدولار، فأمريكا والسّعوديّة وجهان لعملة واحدة. اصطحبنا عمّتي في هذه المرة، فقد كانت المراكز التّجاريّة متناثرة حول المسجد النّبويّ والوصول إليها سهلًا يسيرًا. ونظرا لكثرة السّلع وتنوّع المعروضات وطول قائمة المدعوّين والمدعوّات إلى وليمة «هدايا العُمرة»، فقد مضى الزّمن بسرعة وجرى بنا الوقت حتّى حلّ الظلام وحان وقت صلاة المغرب. فما كان من أبي إلّا أن رمى كلَّ أكياس المشتريات في يديّ وتركني مع عمّتي وذهب كعادته يسابق الرّيح. ولو كان له فقه بالأوّلويات لما تركني في هذا المأزق لوحدي ولأعانني على الأقلّ على الخروج من المركز التّجاريّ ثمّ لا يضرّه بعدُ ما أدرك من الصّلاة أو ما فاته، فديننا دين واقع وحياة. لكنّ ذلك كان مبلغه من العلم. وقدّر الله أن تسقط عمّتي ذاك السّقوط المدوّي.

بحثت كالمفجوعة عن درج لكي أصعد فيه معها لكنّني لم أجد. ولمّا كان الوقت متأخّرا وخشيت أن تفوتنا الصّلاة. شجّعتها على الصّعود في السّلّم الكهربائيّ وزعمت أن لا خيار لدينا. مسكينة عمّتي، كانت تكره السّلّم

الكهربائيّ وكادت يومها تسقط فيه غير مرّة لولا أن أمسكها أبي وتطوّع شيخ كبير فأسندها بقوّة كرّة أخرى، وهو ما أعجبها وأثار ضحكاتها الطّفوليّة. لقد نجحنا إلى حدّ الآن في تجنّب الكارثة. لكن ما كلّ مرّة تسلم الجرّة.

تخيّلوا أنّني كنت غارقة في أكياس المشتريات. وعلى كثرتها جمعتها كلّها وأمسكتها بيدي اليسرى ثمّ أمسكت بيد عمّتي وضغطتها بقوّة وحثثتها على صعود السُّلّم معي وتتبّع خطوتي. قلت لها ما إن أعطيك الإشارة حتّى تضعي ساقيك على السُّلّم بسرعة ولا خوف عليك، هيّا تشجّعي. كنت أحسب أنّها تدرّبت على استعماله بما فيه الكفاية في تلك الأمسية. لكنّني كنت مخطئة. ولم تمض ثانية واحدة على شجاعتنا المتهوّرة أو تهوّرنا الشّجاع حتّى رأيت عمّتي تسقط على السّلّم وتكاد تجذبني معها. رأيت المسكينة ممدّدة على طولها في السّلّم، رأسها إلى أسفل وساقاها إلى أعلى والسّلّم يصعد بها نحو المجهول. اتّسعت عيناي وجفّ حلقي، كان مشهدا مضحكا ومؤسفا في آن. لم أصدّق ما جرى وكيف حدث بهذه السّرعة. أنا نفسي فقدت توازني، لا سيّما مع الأكياس الثّقيلة، وكدت أسقط لكنّني تداركت أمري. والآن أجدني فريسة مشاعر متضاربة أتأرجح بين الرّغبة في الابتسام والقلق على عمّتي ومصيرها وكيف أوقف هذه الماكينة الجهنّميّة. ثمّ ماذا ستفعل هي حين تصل إلى نهاية الطّريق؟ ندمت أشدّ النّدم ونهشني الشّعور بالذّنب وأنا أتفرّج عليها عاجزةً تماما عن إنقاذها بينما ارتسمت على وجهها علامات الخوف والخجل والألم. آه يا إلهي، كنت أحسب حقّا أنّني قد أمسكتها بقوّة، لكنّ أكياس المشتريات لم تسهّل عليّ المهمّة بل أعاقتني. وسرعان ما هبّ رجلان بزيّ رسميّ لنجدَتها.

وعبثا حاولا مساعدتها على الوقوف وقد انضممت إليهما وحاولت بدوري إعانتهما على هذه المهمّة الشّاقّة دون جدوى. تخيّلوا يا إخواني، رجلان وامرأة، ثلاثة في عنفوان الشّباب لم يفلحوا رغم الجهود المتظافرة في إنقاذ عجوز في الخامسة والسّبعين ترقد على سلّم كهربائيّ يتحرّك. فكيف السّبيل إلى الخروج من هذا المأزق؟ طبعا الزّرّ، لقد داس أحدهم على زرّ التّشغيل فتوقّفت الآلة العجيبة وتوقّف الكابوس، توقّف السّلّم فتمكنّا أخيرا من مساعدة عمّتي على النّهوض والوقوف على قدميها والحمد لله.

تبسّمت على استحياء وغمغمتُ بعبارات شكر وثناء لمنقذينا الّذين دعوا عمّتي إلى الجلوس على مقعد كي ترتاح وتستعيد أنفاسها وشيئا من قوّتها. لكنّها واصلت سيرها وهي تهرول ضاحكة مستبشرة وأخبرتهم أنّها بخير ويجب عليها الإسراع للّحاق بصلاة المغرب. كان أمرا لا يُصدَّق. وقد دُهش الموظّفون وعجبوا منها ثمّ ضحكوا لها ورافقتنا ابتساماتهم ودعواتهم لها بالصّحّة والعافية.. لم تلمني عمّتي في هذه المرة ولم توبّخني أبدا بل ضحكنا معا من أنفسنا ومن الموقف المحرج الّذي مرّ بنا. وقد خرجتُ من هذا الحادث الطّريف بخدش في المعصم سرعان ما تلاشى مع مرور الزمن. وإنّها لآية من آيات الله عظيمة حين نبصر بأعيننا قوّة هذا الجسد الّذي صنعه الله، ذاك الّذي يداوي نفسه بنفسه في كثير من الأحيان. فأسوء جرح وأكبر خدش سرعان ما يندمل مع مرور الزّمان وأحيانا لا يبقى له أيّ أثر يذكّرك به وهذا ما حصل معي. تلاشى ذاك الخدش وقد وددت لو أنّه باق في يدي وشاهد على أيّام جميلة وأوقات وددت لو عدت فعشتها كرّة أخرى.

وقد تسبّب هذا الحادث في حرمان عمّتي من زيارة رسول الله ﷺ، وكيف السّبيل إلى ذلك وهي بعيدة عنه مشي ساعة وانتظار دهر ووجع ساق وتعب سنين. كانت المهمّة شاقّة للغاية بالنّسبة لها وصارت بسقوطها المدوّي مستحيلة. سأذهب إلى الرّوضة بمفردي هذه المرّة إذن، شعرت بالأسى من أجل عمّتي لكنّي في نفس الوقت فرحت واستبشرت لأن الله لطف بي وخفّف عنّي حملا ثقيلا كنت أحمل همّه وأعالج غمّه. ثم إنّي حين ذهبت ورأيت الأعداد المهولة من الزّائرات من مختلف الأجناس والألوان والأعمار، حمدت الله أن جعل لعمّتي سببا كي تجلس الآن في فراشها قريرة العين هانئة البال وتنعم بالرّاحة الّتي تستحقّها، وما كان لها أن تصبر على كلّ هذا المشي والانتظار ثمّ الاكتظاظ الهائل الّذي ما حسبتُ له حسابا.

منذ ولوجي إلى داخل المسجد وقبل الوصول إلى الرّوضة الشّريفة استقبلتني فتاة تلبس السّواد وسألتني من أيّ الجنسيّات أكون؟ فأجبتها بأنّي عربيّة، حينها دعتني إلى الجلوس مع العرب والانتظار. وانصعت إلى أمرها وأنا أحسّ بغرابة الوضع: أن تكون إنسانا وتوضَع في خانة ما، في مجموعة ما، أمر يُشعرك بمدى الاختلاف الّذي جعله الخالق بين البشر من حيث الجنس واللّون واللّغة والثّقافة. ويشعرك أيضا بضآلتك وبأنّك قطرة ماء في موج متلاطم من الخلائق والعجائب.

جلست أرقب جنديّات النّظام وأرنو إليهنّ بنظرات ملؤها الإعجاب، إذ لم يبد عليهنّ التّعب ولا التّأثّر بالأفواج الهائلة والمتجدّدة من الزّائرات. وكنّ حازمات وعلى درجة عالية من المهنيّة جعلتهنّ يسيطرن على الوضع ويحلّلن

النّظام. كأنّ الواحدة منهنّ شرطيّ مرور في تقاطع طرق إحدى كبريات المدن. ومن أجل تنظيم الزّيارات تمّ توزيعنا على مجموعات وقرأت لافتات كُتب عليها: عرب، أندونيسيا، تركيا،...

كانت أخواتنا التّركيّات في الرّوضة. وبالتّالي توجّب علينا انتظار دورنا. فقرّرت أن أستغلّ وقتي أحسن استغلال بقراءة ما تيسر من القرآن. لكن كيف السّبيل إلى الخشوع أو التّركيز مع هذه الجلبة الّتي تصمّ الآذان، مع هذه الصّرَخات التي تشقّ الفضاء وينشطر منها القلب ألما ورهبا؟ من أين يأتي هذا الكمّ الهائل من الألم يا ترى؟ تتبّعت الصوت وأنا أمشي على استحياء، فألفيت امرأة شابّة ضخمة الجثّة قد افترشت الأرض يرتعد بدنُها ويهتزّ هزّات عنيفة، تطلق صرخات متقطّعة بينما تغيّرت ملامح وجهها لتعكس ألما مبرّحا تفطّر له قلبي وما دريت ماذا أفعل لها ولا ما سبب عذابها. أحزنني جدّا منظرها وأزعجني. نعم أزعجني أن يكون المرء في عُمرة وفي عبادة وبجانب قبر رسول الله ﷺ وفي أطهر بقاع الأرض ثم لا يشفع له هذا وتلحقه الدّنيا بعذاباتها وكبدها ونقصانها الّذي جُبلت عليه. طبعا كانت نظرة ضيّقة وساذجة سببها قلّة فقه في الدّين وقلّة معرفة بتقلّبات الحياة. كنت قد نسيت أنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة. بآلامها وأسقامها وأتعابها وخيرها وشرّها، كلّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. ثمّ لا شفاعة لشخص ولا لمكان، الشّفاعة كلّ الشّفاعة فيما تقدّمه لنفسك من أعمال البرّ والتّقوى. فبالصّدقة مثلا تتّقي شرّ البلاء، والصّوم جُنّة وهكذا. وكم حفَلَ التّاريخ بمشاهد تُدمي القلوب لجرائم ارتُكِبت في أماكن مقدّسة.

وما عبد الله ابن الزبير عنا ببعيد وقد قُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة، وكذا سيّدنا عثمان رضي الله عنه الّذي اغتيل وهو يقرأ القرآن وسال دمه على المصحف الشّريف وإنّا لله.

لكنّ كلّ هذه الأفكار والشّواهد غابت عن ذهني الغضّ آنذاك، وشعرت بوحدة قاتلة وبأنّني ذرّة تائهة تافهة أو طفلة صغيرة ضائعة أفلتت يد أمّها وسط الزّحام. وأحسست بعجزي وقلّة حيلتي أمام المرأة المسكينة الّتي لم تفتأ صرخاتها تقطّع نياط قلبي. وعندها فقط اشتقت إلى أمّي، عندها تهاويت على الأرض وأسندت ظهري إلى عمود ثم بكيت بكاء صامتا وحزينا، كم أنا وحيدة يا ربّي.

* * *

غدا نلقى الأحبّة

المدينة المنوّرة، 25 مارس 2010

استيقظت ورأسي مليء بصور اللّيلة الماضية حين زرت رسول الله ﷺ للمرّة الأخيرة. تسارعت الأحداث فجأة وانفلتت النّساء من عقالها، نساء مجموعة «العرب» لم يردن الصّبر على أخواتهنّ المسلمات، كرهن الانتظار وضاقت صدورهنّ بالنّظام فانطلقن في هجوم كاسح على الرّوضة رغم اعتراض حارسات النّظام واستعمالهنّ مكبّرات الصّوت ودعوتهنّ النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة وتذكيرهنّ بآداب السّنّة النّبويّة وقبساتها النورانيّة... كُنّ يتحدّثن باللّهجة السّعوديّة الّتي بدت لي قريبة جدّا من اللّغة العربيّة الفصحى. وكم أحببت لهجتهنّ وأصواتهنّ واستماتتهنّ في محاولة السّيطرة على الوضع والتحكّم في نظام الزّيارات. لكن وا أسفي حين تتجرّد المرأة من دينها وعقلها وتطلق العنان لمشاعرها وهرموناتها، حينها على الدّنيا السّلام. فلا هي تنصت إلى صوت المنطق ولا هي تصغي إلى وحي العقل ولا هي تهتدي بهدي الرّسول ﷺ الّذي جاءت تحارب بالأيادي والسّيقان كي تزور قبره وتمرّغ وجهها في روضته. لا والله.

ومن لهذا الطوفان؟ من لهذا الموج المتلاطم من العربيّات اللّائي روّعن أخواتهنّ الأندونيسيّات والتّركيّات. ولم يصبرن على خروجهنّ بسلام لبضع دقائق إضافيّة؟ ما لكم كيف تحكمون؟ لم كلّ هذه الهمجيّة والفوضى في أمّة تصلّي خمس صلوات في اليوم واللّيلة مضبوطة بالدّقيقة والثّانية وتصوم

رمضان فإن أفطرت قبل الأذان بدقيقة بطُل صيامها؟ مسكينات هؤلاء الأندونيسيّات، فقد حباهنّ الله بوجوه بريئة وأجساد ضئيلة وأقدام دقيقة فأحسسن كأنّ إعصارا أتى عليهنّ حتّى رأيت الخوف والقلق في أعينهنّ. وحُق لهنّ أن يخشين على أنفسهنّ وهذا الطّوفان العربيّ مائج هائج لا يراعي في المؤمنات إلًّا ولا ذمّة. وأولاء النّساء العربيّات فيهنّ المتعَبة وفيهنّ الضّائقة صدرا وفيهنّ الّتي استنفذت آخر قطرات الصّبر وفيهنّ ربّما المريضة أو المتوجّعة وكلّهنّ مجنونات. نعم، لقد رأيت الجنون بعينه يمشي على ساقين ويدفع النّاس بكتفين يحمله الشّوق إلى رسول الله ﷺ والجوع إلى تحقيق الأماني واستجابة الدّعاء. مرّة أخرى صدمتني تصرّفات المسلمات في رحلة تعبُّد من المفترض أنّها تزكّي النّفس وترقّق القلب. وأسفت على ناقصات العقل والدّين من بنات جلدتي والمتكلّمات بلساني. ما ضرّهنّ لو انتظرن قليلا؟ أخيرا وجدت أن لا بدّ لي من خوض غمار المعركة بدوري. فما عاد يُجدي الانتظار وقد اختلط الحابل بالنّابل فلا تأدّب ولا انتظام. الحمد لله أن لطف بعمّتي، لم تكن لتنجو من ليلة ليلاء كهذه.

رأيتُني أخرج تحملني قدماي وقلبي غاضب حزين يصيح بي ويصطرخ كيف طابت نفسك أن تبتعدي عن رسول الله ﷺ؟ كيف طاوعتك قدماك على الخروج من الرّوضة؟ خرجتُ، لكنّني تركتُ جزءا منّي هناك في أقدس بقاع الأرض وأطهرها.. تركته في روضة من رياض الجنة اقتُطِعَت لمساكين الدّنيا كي يأُمُّوها كلّما أخذهم الشّوق وحزبهم الأمر وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. فهاهنا الشّفاء وهاهنا الدّواء. وإنّما يتعافى المرء بالصّلاة في مسجد

رسول الله ﷺ، بسجدة طويلة صادقة ودعاء من قلب منكسر فقير... خرجتُ والنّفس تسائل ربّها هل ستكتب لي شرف العودة إلى بيت حبيبك ومسجده؟

هيّا انهضي، أمامنا يوم طويل. هكذا أيقظني صوت عمّتي وانتشلني من أحلامي الصّباحيّة وتأمّلاتي السّرمديّة. نعم هي على حقّ. فاليوم نقوّض الخيام ونحمل الزّاد والطّعام ونيمّم وجوهنا شطر مكّة المكرّمة، أحبّ بقاع الأرض إلى الحبيب المصطفى ﷺ. لكنّنا لم نكن من المسافرين لوجه الله المتخفّفين من متاع الدّنيا، بل كنّا كمثل الّذين يبعثون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم.. وأصبحنا وبيننا وبين مكّة حجب وغواش وأكياس محمّلة بأواني الطّبخ وعلب الطّماطم والفلفل وأنواع البهارات وقوارير زيت الزّيتون، ثمّ حقائب هدايا العُمرة لمن عرفنا ومن لم نعرف ومن لم يعرف أنّنا نعرف، إلى جانب ثيابنا ومتاعنا وشباشبنا... وقبل الرّكوب في الحافلة يجب إنهاء المشتريات وحزم الأمتعة... ويا لها من أمتعة، سوق مركزيّة متنقلّة!

كنت قد ذهبت في الصّباح لقضاء بعض المشتريات من تلكم المغازة الّتي صرت زبونة وفيّة لها. كيف لا وفيها ما لذّ وطاب وسرّ العين والخاطر من ثياب المسلمة الّتي لا أجد لها مثيلا في بلدي؟ زد عليه دماثة أخلاق البائع الهيّن اللّيّن المبتسم على الدّوام. وحين عودتي إلى غرفتنا لفّني الحزن من كلّ جوانبي وأخذني الشّوق إلى حياتنا البسيطة الجميلة في مدينة رسول الله ﷺ، تلك الحياة التي ألفتُها وأَلِفَتْني وأخَذَت تفاصيلُها بمجامع قلبي. ما أصعب

أن تفارق مكانا تعوَّدْت عليه وأشخاصا طيبين لم تر في حياتك مثيلا لحسن أخلاقهم وجميل كلامهم ورقيّ تعاملهم ... لكن، وكما يقول الشّاعر: لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان.. ولكلّ أجل كتاب.

مدينة رسول الله تلك الجميلة النّائمة على أرض منبسطة، تلك السّهلة الهيّنة الطّيّبة. الآن فقط أدركت لم هي فاتنة وآسرة، الآن فهمت لمَ يعشقها كلّ من يراها ولمَ يعود إليها كل من زارها ووجد إلى ذلك سبيلا. ففيها مسجد رسول الله ﷺ وفيها الرّوضة الشّريفة وفيها يرقد خير خلق الله وكبار الصّحابة رضي الله عنهم وفيها من قصص البطولة والإيثار والوفاء ما تعجز قرائح الكُتّاب عن تخيّله وإيجاده. وإن نسيت فلا أنسى جمال المسجد وزخارفه وفسيح ساحاته، وصلوات يطول فيها السّجود والتّشهّد. وإن نسيت فلا أنسى صوت ماهر المعيقلي وتلاوته الخاشعة الحزينة الّتي أسمعها كلّما دخلت إلى مغازة فينخلع لها قلبي تأثّرا وإعجابا. هذه مدينة رسول الله ﷺ، هذي هي الأرض التي استقبلته وآوته ونصرته حين تنكّر له الأهل والأحباب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت. حتّى قال ﷺ يوم حُنين حين وجد الأنصار في أنفسهم من أنّ الرّسول ﷺ قسمَ للمُتألّفينَ مِن قُرَيشٍ وسائرِ العربِ ما قسمَ من الغنائم، ولَم يكُن للأنصارِ شيءٌ منها، قليلٌ ولا كثيرٌ، قال لهم: «أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدّنيا تألَّفتُ بها قَومًا أسلَموا، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ اللهُ لكُم مِن الإسلامِ؟! أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النّاس إلى رِحالِهم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟ فَوَالّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ النّاس سَلَكوا

شعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللّهمّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ. فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا باللهِ رَبًّا، ورسولِهِ قسمًا، ثمَّ انصرفَ.. وتفرَقوا..».

ها هي ذي أرض الأنصار والصّحابة الكرام، تعجّ بالنّاس من مختلف الأقطار والأعمار، حتّى إذا دخلت مسجد رسول الله طالعتك فسيفساء آسيويّة من البشر من مختلف الأجناس والألوان، هي لوحة بشريّة غنيّة باختلافها وبعظمة خالقها ومصوّرها. كنت أرى النّاس وأطالع الوجوه والسّحنات وأتساءل عن الرزّاق كيف رزقهم وكيف سيجمعهم ليوم الحساب لا ريب فيه سبحانه.

هذي هي المدينة التي رأيت فيها وعجبت وأُعجبت بمنظر الحياة الّتي تتوقّف عند: الله أكبر. فما إن ينطلق الأذان حتّى تقفل المغازات أبوابها ويسارع الرّجال إلى مسجد رسول الله ﷺ مخلّفين بعض السّلع المتأرجحة في الهواء يحثّون الخطى يبتغون التّجارة مع الله. كيف لا والصّلاة في المسجد النّبويّ بألف صلاة، كيف لا وفيه رسول الله ﷺ؟! أنا القادمة من بلادي الخضراء حيث يُحارَب الحجاب وتُحاصَر الصّلاة وتُعتبَر اللّحية شبهة والاختلافُ إلى المسجد جنحة وحضورُ صلاة الفجر جريمة. أنا القادمة من تونس الّتي ما خرجت منها فرنسا إلّا وتركت فيها من ينوبها ويعمل بإخلاص للدّفاع عن أفكارها المتهتّكة وميولها المنحرفة. حتّى صرنا البلد العربيّ الوحيد الّذي يمنع دخول الطّالبات المحجّبات إلى القسم والموظّفات الملتزمات إلى الشّركة

أو الوزارة.. أنا القادمة من بلاد العلمانيّة المتطرّفة على الطّريقة الأتاتوركيّة. أنا المسلمة المُحِبَّة لديني ولمظاهر التديّن والحياء، أُعجبت أيّما إعجاب بهذا العرض الرّائع: تتوقّف التّجارة، يتوقّف البيع والشّراء، تتوقّف دقّات السّاعة حتى يكون الاتّصال ما بين الأرض والسّماء، الله الله في الصّلاة... ثم اضربوا في الأرض وابتغوا من فضل الله.. لماذا في بلادي لا تُحترم الصّلاة؟ لماذا يجب أن تكون الصّلاة جسدا بلا روح، مجرّدَ تقليد يتّبعه العجائز والمسنّون حين يحسّون بدنوّ أجلهم؟! لم لا نعبد الله إلّا حين نصير قاب قوسين أو أدنى من القبر؟! لم يكون الشابّ الملتزم بصلاة الجماعة محلًّا للاستجواب والاستنطاق والتّتبّع الأمنيّ الإرهابيّ؟!

طبعا سيريحنا الله من كلّ هذا بعد بضع شهور وسيهرب الفرعون الصّغير وستضيق عليه الأرض بما رحبت ولن تستقبله إلّا .... إلّا بلاد الحرمين الشّريفين، وفيها سيعيش ويموت طريدا شريدا وحيدا هاربا ذليلا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقد كان.. وقد أغلق الطّاغية مسجد المُرَكَّب الجامعيّ بالمنار، وقد كان منارة العلم والعبادة وقبلة الشّباب المتديّن والمتميّز، كان قبلة لآلاف المسلمين وخيرة الشّباب اللّامعين، طلبة كلّيّة الحقوق والعلوم الاقتصاديّة

(1) البقرة، 114

والطّبيعيّة والهندسة. فخاف الجبان وغار وأغلق المسجد وجعله خرابا يبابا. فصار مأوى للسّكارى والمنحرفين ومرتعا للحشرات والدوابّ، قد أُلقيت فيه المصاحف على الأرض وتناثرت زجاجات الخمر.. نعم قد فعلها الفرعون الأصغر فطغى في الأرض وأكثر فيها الفساد وتجبّر فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

واعذروني يا إخوان فقد أخذتكم من أنوار المدينة إلى دهاليز الظّلم وغياهب الظّلمات. ومن سعة مسجد رسول الله ﷺ إلى ضيق أفق عدوّ الله.. وتالله ما كنت أنوي أن أقول هذه الكلمات، لكنّها خرجت من قلب فتاة كبطلة بثينة العيسى في كتابها: كبرتُ ونسيتُ أن أنسى. أنا أيضا كبرتُ ونسيتُ أن أنسى ورفضتُ أن أنسى وكتبت كي لا ننسى ما حصل في يوم ما. فذاكرة الشّعوب كالغربال المثقوب...

كنت أودّع المدينة وقد استودعتها روحي ومهجة فؤادي. قد لفّني الحزن من كلّ جوانبي وانثال الدّمع على خدَّيَّ. لكن لم يكن هناك متّسع من الوقت كي أبكي وأتحسّر وأقف على الأطلال. فقد كان عليّ أن أقطع فترة الحداد لأتمّم حزم الحقائب والأكياس بما فيها المطبخَ المتنقّل المتنكّر في زيّ حقيبة رياضيّة سوداء منتفخة كدبّ قطبيّ تحسبه أبيض لكنّ شعره في حقيقته أسود. نعم تبدو حقيبة رياضيّة كبيرة لكنّها مسالمة.. تبدو كذلك حتّى تقرّر رفعها بل زحزحتها من مكانها. هناك ستتفطّن أنّك أمام جبل تُهامة. جبل من العلب والأواني وأدوات الطّبخ، وسوق تونسية فيها أنواع من الخضر والغلال وعدد هائل من أشياء بلاستيكية لا تصلح لشيء وينبغي

التّخلّص منها. لكنّ عمّتي متشبّثة بها كما يتشبّث الغريق بلوح في الماء. وقد اكتشفت في سفري هذا طبعا لم أعرفه في عمّتي، وهو أنّها لا تقوى على رمي أيّ شيء. فحتّى الملعقة والشّوكة والسّكّين الّتي وزّعوها في الطّائرة مازالت تحتفظ بها. أمّا أنا فقد تركت شيئا منّي في هذه الغرفة من الطّابق الثّالث عشر في إقامة «إلياس»، حيث رأيت العديد من المعارك والملاحم حول المصعد الكهربائيّ.. نسيت شيئا يميّزنا عن الدّوابّ.. نسيتُ الشّبشب!

العاشرة ليلا، اتّخذنا أماكننا أخيرا في الحافلة مستعدّين لرحلة ليليّة طويلة مع بقيّة المجموعة التّونسيّة، رحلة تبدو صعبة من أوّلها. كنت جالسة حذو النّافذة أتأمّل المدينة وهي تمرّ مرّ السّحاب وتبتعد عنّي بخطى ثابتة بل بقفزات ضخمة. رأيتها تودّعني ثم تعدني بلقاء آخر مازلت في انتظاره إلى حدّ كتابة هذه السّطور... حاولت تذكُّر الأماكن والوجوه والتّجّار الّذين لم أعرف في حياتي مثيلا لنُبلهم ودماثة أخلاقهم. حاولتُ حفر هذه الصُّور في ذاكرتي ورنّت في أذني تلك الكلمة الرّائعة: «دكتورة»! إلى اللّقاء يا طيبة الحبيبة، من هنا فصاعدا قلبي لم يعد ملكي!

* * *

شاي بدون سكّر

مكّة، 2 مارس 2010

خلّفنا المدينة وراءنا ومضت بنا الحافلة تنهب الأرض نهبا في اتّجاه فتح جديد، حلم كبير على وشك أن يصير حقيقة، في اتّجاه أحبّ البلاد إلى رسول الله ﷺ، مكّة المكرمة. كانت المرأة الجالسة إلى جانبي تغطّ في سبات عميق، قد تصاعد شخيرها منذ «الخطوات» الأولى في الطّريق، بينما كنت أنظر من النّافذة متعجّبة من هذا الازدحام الهائل الّذي علِقنا به وأتأمل السيّارات الكبيرة العريضة الّتي لا تكاد ترى صنوها في بلادي. كانت سيّارات على الطّراز السّعوديّ، أقصد الأمريكيّ. وكنت أستمع إلى الإذاعة المحلّيّة، تنساب الأنغام الخليجيّة إلى أذنيّ. في تلك اللّحظة أحسست بأنّني سائحة ولست فقط معتمرة وأردت أن أتطّبّع بجميع الرّوائح والأصوات والصّور وكلّ هذه الثّقافة الجديدة عليّ. لكن سرعان ما استحييت من ربّي ومن ضعفي وغيّرت المحطّة إلى القرآن الكريم. ألست هنا من أجل التّقرّب إلى الله؟ ألست هنا في سفر روحيّ؟ إذن فما للدّنيا ومالي؟

فتحت عينيّ. لا أتذكّر متى غلبني النّعاس فاستسلمت إلى خدره اللّذيذ، لكن كانت الأجواء منعشة قبل أن أنام، أمّا الآن فبتّ أتصبّب عرقا وأنشد الهواء فلا أجده. ما السّبب بحقّ السّماء؟ كان الحرّ شديدا والجوّ ثقيلا. لقد تعطّل المكّيّف. آه هذا رائع تماما! وهذه المرأة بجانبي لا تزال في نومها الصّاخب وشخيرها المنتظم كأنّ شيئا لم يكن. كم أغبط هؤلاء الأوغاد (كما

يقول أحمد خالد توفيق) الّذين يتكيّفون مع كلّ الظّروف ويجيدون النّوم حتّى على شفا جبل هار. وقد عرفت منهم أصنافا، كتلك المحظوظة الّتي تبدأ الجملة معك ثم لا تتمّها إلا بصوت تنفسها المنتظم حيث تستسلم للنّوم اللّذيذ وتتركك لتعبك وسهادك تساهر الدّجى وتتراكم عليك الهموم وتلفّك الظّنون ولا تكتحل عينك بالنّوم إلّا مع تباشير الصّباح الأولى.. عرفت هذا في مبيت البنات حين كنت طالبة...

أخيرا فتحت الأميرة النّائمة العجوز عينيها وتسنّى لي أن أخرج من تلك الحفرة الملتهبة وأذهب للاستجمام بعيدا عن تلكم الأجواء الخانقة. فقد حان وقت الاستراحة الّتي ستدوم ساعة كاملة. وكان هناك محلّ متواضع لبيع المشروبات، فوقفتُ أمام النّادل وطلبتُ منه: «شاي بدون سكّر لو سمحت.» قلتها بالعربيّة الفصحى وتجنّبتُ اللّهجة التّونسيّةَ كي أريح نفسي من عذابات سوء الفهم والتّأويل. سألني النّادل عن جنسيّتي، فأجبته. وإذا به يهنّئني لأنّي أجيد التحدّث بالعربيّة. فاستغربت قوله وأخبرته بأنّ هذا أمر طبيعيّ. هنا سألني ذاك السّؤال القاتل: لماذا تتحدّثون كثيرا بالفرنسيّة معاشر بلدان المغرب العربيّ؟ فلم أحر جوابا، وبم أجيب؟ هل أقول أنّ فرنسا استعمرتنا؟ وهل يشفع لنا هذا؟ يا للسّخف. وكأنّ الرّجل قرأ أفكاري فبادرني بالقول: «أنا يمنيّ الأصل وقد استعمر الإنجليز بلادي لمدّة ثلاث مائة سنة، لكنّنا في اليمن لا نتحدّث إلّا العربيّة.»

لشدّ ما احترمت هذا الرّجل اليمني وبلاده وجهاده في عمله المتواضع وتمسُّكه بهويّته...

قفلت راجعة إلى الحافلة أُمسك بين يديّ شاي أبي السّاخن وأتفكّر في بلادي تونس وأتساءل بمرارة: «لم نحن هكذا؟ لم هذا الانفصام في الشّخصيّة؟ لم هذه التّبعيّة المقيتة؟» لأنّ فرنسا خرجت من الباب ثم أدخلها بورقيبة من الشّبّاك فسار على نهجها وعظّم لغتها ورسّخ ثقافتها وحارب كلّ ما هو عربيّ وإسلاميّ. فصرنا مسخا مشوّها لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وصارت لغتنا أكبر شاهد على تخلّفنا، فلا نحسن نطق جملة بالعربيّة العامّيّة إلّا إذا حشرنا فيها كلمتين أو ثلاثة بالفرنسيّة. ولو كنّا نحسن تقليد الغرب لتحدّثنا بلغتنا، فهم لا يتحدّثون إلّا بلغاتهم. حتى إذا ذهب الواحد منّا ليعمل في ألمانيا مثلا لم يقبلوا منه حتّى الانجليزية وطالبوه بتعلّم الألمانيّة ما دام يريد العيش بين ظهرانيهم. أمّا فرنسا فهي تحمي لغتها بسلطة القانون وبالمؤتمرات السّنويّة للفرنكوفونيّة تقيمها. حتّى أنّ وزيرا لهم استغلّ أحداث الثّورة التّونسيّة ليتبجّح بأن التّونسيّين حين أرادوا طرد رئيسهم عبّروا عن ذلك بالفرنسيّة فقالوا Dégage أي اُخرج، قالها بغطرسة المستعمر. وكلّهم ينفخ في صورة لغته وثقافته ويعظّمها ويمجّد تاريخها إلا نحن، فلا حول ولا قوّة إلا بالله.

بعد الاستراحة استأنفنا طريقنا وسرعان ما وصلنا إلى غايتنا. كان اللّيل لا يزال يلقي بسدوله على المكان، وتراءى لي جبل عظيم تملؤه الأنوار، بينما واصلت الحافلة صعودها بنا إلى أعلى فأعلى حتّى تبيّن لي أخيرا أنّ ما حسبته جبلا إن هو إلّا الحرم المكّيّ تحوطه بنايات أخرى شاهقة وعظيمة. نعم، لقد وصلنا بحمد الله، فمرحبا بنا في مكّة موطن رسول الله ﷺ!

رفعت رأسي لأتعرّف على اسم الفندق (ولهذا التّفصيل أهمّيّته في قادم الفصول) وقرأت: «هوازن». ولجهلي لم أدر حينها على التّحقيق أهي «هوازن» أم «هوى زن»... حين دخلنا إلى قاعة الاستقبال صدمني ضيقها وصغرها. ثمّ أدركت أنّه نظرا لتضاريس المكان لم يكن هناك متّسع للبنايات العريضة، بل للعمارات العالية كما يحدث في اليابان. وقلت يا نفس تفاءلي، على الأقلّ هذا فندق حقيقيّ وليس إقامة متّسخة كتلك الّتي حوتك في المدينة. هذه المرّة تحسّنت أحوالنا تحسّنا ملحوظا، فعوض الطّابق الثّالث عشر ترقّينا إلى الطّابق الثّاني عشر. ثم ما هذه الغرفة الضّئيلة الضّيّقة؟ وما هذا البرّاد الّذي يقطر منه الماء مكوِّنا بركة صغيرة في المتر المربّع الوحيد الفارغ في هذا القفص؟ فما إن وضعنا أمتعتنا والمطبخ المتنقّل المتخفّي في شكل حقيبة سوداء حتّى امتلأ المكان. تذكّرتُ وجوه الموظّفين في الاستقبال حين لم يحاولوا إخفاء انزعاجهم وتبرُّمهم من وجودنا الصّاخب وكثرة حقائبنا وتعب عجائزنا، حيث شُلَّت الحركة تماما بحضورنا. وهل ذنبنا أنّ قاعة الاستقبال ضيّقة؟ وكيف السّبيل إلى العيش وسط هذه الغرفة حيث تشي زينة الحائط بأنّها كانت مصمّمة لاستقبال شخصين لا أكثر. فإذا بجشع المالك يحوّلها إلى قفص لبومات ثلاث. صحيح أنّها جميلة نوعا ما مقارنة بسالفتها، لكنّي تساءلت في جزع كيف سنتعايش فيها بسلام؟ كيف سيقيم أبي وعمّتي وأنا أسبوعا كاملا وسط هذا الازدحام؟ شعرت بالإحباط واليأس الشّديد. لكنّني كنت مُنهَكَة والسّريرُ كان مريحا فاستسلمت إلى نوم لذيذ. بعدها بساعتين أفقت فزعة على دقّات شديدة تقرع باب الغرفة، كان قائد المجموعة يدعونا إلى موعد مع التّاريخ ... حان الوقت للقيام بمناسك العُمرة!

طواف

مكّة، 26 مارس 2010

خرجنا بوجوه ضاحكة مستبشرة وقلوب تكاد تنفلت من بين أضلعنا فرحا وشوقا إلى بيت الله. خرجنا نمشي على الغمام نسارع إلى مغفرة من ربّنا وجنّة عرضها السّماوات والأرض. تبدأ برؤية الكعبة، تلك الملكة المُتَوَّجة على جميع بقاع الأرض، تلك الوقور الحصان الرّزان، تلك القديمة قدم التّاريخ، الشّاهدة على صروف الدّهر وتقلُّب الملوك وتبدُّل الأزمان. إن هي إلّا عشر دقائق مشيا على الأقدام قطعنا فيها شارعا وصعدنا سلالما وولجنا بوّابة كبيرة عظيمة، حتّى وجدنا أعيُننا مشرّعة على الجمال، على تلك الصّورة البهيّة الّتي كنّا نراها من وراء الشّاشات الباردة، لكنّنا نبصرها الآن بأعيننا ونسمعها بآذاننا ونكاد نلمسها بأيادينا، ونراها حقيقة ملموسة دانية قطوفها نابضة بالحياة.

تذكّرت أنّ عليّ اغتنام هذه اللّحظات النّفيسة للذِّكر والدّعاء. فرؤية الكعبة للمرة الأوّلى من أجَلِ أوقات التعرّض لنسائم الإيمان ونفحات الله. ثم بدا لي لوهلة أن الكعبة ليست بذاك الكبر والاتّساع الّذي كنت أتخيّله. كنت مخطئة تماما ولا أدري لم راودتني هذه الفكرة. وسرعان ما نسيت تأمّلاتي حين أحسست بيد تنقضّ على ساعدي وتمسكه بشدّة. وتلفّتُّ فإذا هي امرأة من مجموعتنا قد تشبّثت بي وأوصتني بألّا أتركها أبدا مدّة الطّواف الّذي سنقوم به حول الكعبة. كنت ممتنّة لها معجبة بحزمها وحنكتها.

ولامس اهتمامها بي شغاف قلبي، لكأنّها أمّي التي خلّفتها في البيت أو أختي الكبرى حنان. لكنّني استغربت في نفس الوقت من شدّة حرصها. وبدا لي أنّها مبالغة فيه، وتبيّن لي مرّة أخرى أنّني مخطئة. إذ من السّهولة بمكان أن يضيع المرء وسط الزّحام، فثمّة أناس قد يقطعون عليك طوافك في أيّة لحظة، كمثل هذه السّلسلة البشريّة التّركيّة. يا لغلظتهم وجفائهم إذ يمرّون وسطنا رغما عنّا دون أن يترك أحدهم يد الآخر ولا يهمّهم كم قطعوا من سبيل وكم أقلقوا من عابر.

جعلنا البيت على يسارنا وأتممنا سبعة أشواط. وكنّا إذا بلغنا مقام إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رفعنا أيادينا مُحَيّين ذاك الّذي كان أُمَّة حنيفا وما كان من المشركين.. وإنّي لأعجب من نفسي كيف اقتحمتُ الطّريق إلى العُمرة وما قرأت حرفا ولا سألت بشرا عن مناسكها. فكنت أكتشف كلّ شيء حال تعرّضي إليه، لكنّ لهذا الأمر جانبا مشرقا وهو التّشويق والإثارة ومتعة الاكتشاف. وكنت أرى رفيقاتي يمسكن كتب الأذكار والأدعية يقرأن منها بينما يجفّ في حلقي الدّعاء فلا أجد كثير أدعية. فأغبطهنّ وأَعجب من حسن تدبيرهنّ واستعدادهنّ لهذه الرّحلة. وأستصغر نفسي وأنسى أنّني أرهفهنّ عودا وأقلّهنّ تجربة. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لأكثرت من أدعية القرآن، فهو مليء بالكنوز الخالدة. وإنّ من أَحَبِّ الدُّعاء إلى قلبي ما جاء في كتاب الله على لسان الأنبياء والصّدّيقين. وسبحانه من ربّ كريم ذاك الّذي علّمنا كيف ندعوه ثمّ هو يجزينا به...

أخيرا أكملنا الطّواف سبع مرّات حول الكعبة وأنا أحسّ كأنّي في حلم

ولا أكاد أصدّق أنّ الحدث اليوميّ الّذي يتابعه الآلاف خلف شاشاتهم صار جزءا من يومي بل صرت جزءا منه، ذرّة صغيرة لا تكاد تُرى وسط هذا الموج المتلاطم من البشر. لكنّها ذرّة تعي وتشعر وتحلم..

اتّجهنا للنّهل من ماء زمزم وشربنا حتى ارتوينا. ثم صلّينا ركعتين وأخيرا لم يبق أمامنا إلّا السّعي سبع أشواط بين الصّفا والمروة. وهما في الأصل جبلان صخريّان يقعان شرقِيّ المسجد الحرام، لكنّهما صارا اليوم أقرب إلى أكمتين رخاميّتين. هذا السّعي يعود بنا إلى قصّة السّيّدة هاجر زوج إبراهيم وأمّ إسماعيل عليهما السّلام. حين خلَّفَها أبو الأنبياء وابنَها الرّضيعَ وحدهما في الصّحراء المُقفرة مع زاد قليل ثم ولّى مدبرا وقلبه يتفتّت شفقة عليهما. لكنّ المرأة الحصيفة الرَّصينة نادت زوجها: «لم تتركنا هنا؟» ثمّ ما لبثت أن فهمت بقلب المؤمنة أنّه أمر الله فسألته: «أربُّك أمرك بهذا؟» فأجابها «نعم» فاطمأنّت وأردفت قائلة: «إذن فلن يضيِّعَنا الله». وذهب إبراهيم وابتعد. ثمّ رفع يديه إلى السّماء متضرِّعا بدعاء خلَّده القرآن في آيات تُتلى إلى قيام السّاعة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

اطمأنّت السّيّدة هاجَرْ. لكنّها لم تطمئنّ اطمئنان القاعدين الكُسالى الخاملين، بل اطمئنان العاملين الكادحين الثّاقبين الصَّخرَ بحثا عن الماء.

(1) إبراهيم، 37

كانت متوكِّلة لا متواكلة. اطمأنّت، لكنّها أخذت بأسباب النّجاح فجعلت تسعى بين الصّخر والحصى حتى صعدت جبل الصّفا علّها تجد ماء أو بشرا في هذا الوادي المجدب. ثم نزلت متّجهة إلى الجبل المقابل وصعدت على مروة ومازالت تهبط وتصعد حتى أتمّت سبعة أشواط، لا تمشي على الرّخام والمرمر ولا تتمتّع بالظّلّ الوارف والهواء البارد. إنّما سعت تحت شمس حارقة في أرض قاحلة مع رضيع يبكي على الأرض ينتظر أمّه.. مشت أكثر من كيلومترين. ثمَّ أذِن الله لرحمته أن تتنزّل. فجاء الملك وفجّر ماء زمزم. هنالك شربت هاجر وأرضعت ولدها وجاء الطّير فشرب وحام حول المكان في السّماء ممّا أثار انتباه نفر من النّاس من قبيلة جُرهم، فاستقرّوا في مكّة مع هاجر وولدها واتّخذوها موطنا.. هكذا بدأت القصّة.. وما كان واديا مُجْدِبا غير ذي زرع صار قِبْلة الحجّاج والمعتمرين إلى يوم الدّين.

فعجبا من ربّ كريم خلّد سعي أمٍّ رؤوم على مرِّ القرون. فجعل السّعي بين الصّفا والمروة منسكا من مناسك الحجّ والعُمرة. فأين النّاعقون بقضايا المرأة والمتاجرون بها؟ والله ما رأيت تكريما للمرأة أشدّ وأعظم من هذا التّكريم. وما سمعت منافحا عن حقوقها كما نافح الله عنها في كتابه الكريم، واقرؤوا إن شئتم سورة النّساء. بل إنّه حين أراد أن يضرب مثلا في قوّة الإيمان اختار امرأة فرعون، فقال جلّ في علاه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

(1) التّحريم، 11

ثمّ عطف عليها بمريم:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1].

فهل من إعجاز بعد هذا الإعجاز؟

* * *

(1) التّحريم، 12

بين الصّفا والمروة

مكّة، 26 مارس 2010

كنّا مجتمعين متأهّبين للسّعي بين الصّفا والمروة حين انفردت نساء من مجموعتنا بعمّتي وأردن استصحابها والاعتناء بها. وكنّ يشعرن بالإثارة ويتضاحكن تضاحك الصّغيرات على أبواب المدارس بعد عطلة صيف. ففرحت لعمّتي بصحبتهنّ وانطلقتُ في السّعي منشرحة الصّدر أتلمّس خطوات من سعت قبلنا جميعا خلف طيّات الزّمن. لكنّ حلمي الجميل انقطع فجأة حين سمعت صوت ارتطام. والتفتُّ لأكتشف مصدومة أنّ صاحبة هذا السّقوط المدوّي إن هي إلّا عمّتي المسكينة، تلك المرأة الطّيّبة، تلك الّتي سقطت بسببي في المدينة. ثمّ ها هي تسقط كرّة أخرى بسبب سذاجة نسوة في مثل سنّ ولدها، حسبن أنّهن بمجرّد تشجيعها وحملها على الجري والهرولة مثلهنّ إنما يُعدن إليها صحّتها وشبابها.. حصل هذا الحادث الأليم بجوار الصّفا أو المروة. ذاك أنّ بلاط الأرض فيه أشكال وفراغات علقت ساقُ المسكينة بأحدها..

ومن عجبٍ أنّ هؤلاء النّساء الصّغيرات تخلّين عن عمّتي تماما بعد أن ساعدنها على النهوض وانطلقن فرحات مسرورات إلى سعيهنّ بين الصّفا والمروة، ولم يعرننا التفاتة واحدة بعد ذهابهنّ. ووقفنا، أبي وعمّتي وأنا، آسفين ننتظر أن تُتم المجموعة الشّوط الأوّل فنكمل معها في الثّاني. لكنّنا مع طول وقوفنا وانتظارنا لم نجد لرفاقنا أثرا. ومازلت إلى حين كتابة هذه

السطور أعجب كيف مرّوا جميعا من أمامنا ولم نرهم. واضطررنا أخيرا إلى مواصلة السّعي بدونهم. وكنّا ثلاثتنا كأنّنا في عُمرة لوحدنا. وشعرت أنّ أبي استشعر للمرّة الأوّلى حجم المسؤوليّة الموكولة إليه، فأمسك بيد أخته يشُدها وسرنا على قدر خطوتها. وأظنّه فهم مثلي أنه لا يمكن أن تتخفّف من أحمالك وتلقيها على الآخرين مهما أبدوا من حماسة اللّحظة وشغف البدايات. كن واثقا أنّهم في أوّل مطبّ سيتخلّون عنك وستجد بضاعتك قد رُدّت إليك. وليس هذا لجبنهم أو دناءتهم، إنّما هي طبيعة الأمور وسنّة البشر فيما بينهم. فكلّكم راع ومسؤول عن رعيّته. كنّا الأولى بمرافقة عمّتي ورعايتها أثناء السّعي بين الصّفا والمروة.. هذه هي الحقيقة دون مواربة.

سرنا ثلاثتنا واستمتعنا بصحبة بعضنا كما لم نستمتع بها من قبل. وتذوّقنا حلاوة الاتّصال بعد الانفصال وتبعنا خطو عمّتي فمشينا على قدر طاقتها. وكان سعيا طيّبا مباركا عشناه بكل جوارحنا. ويشهد التّاريخ أنّ هذه المرأة العظيمة الصّبورة قد صنعت معجزة إتمام السّعي سبع مرّات بين الصّفا والمروة بقدم مجروحة وجسد أنهكته سبعون عاما أو يزيد من البذل والعطاء دون شكوى أو تذمّر.. هي الصّبر الجميل يمشي على قدمين متورّمتين..

أخيرا حان وقت حلق الشّعر أو التّقصير، وبذلك تمّت مناسك العُمرة وكانت الوجوه ناضرة ضاحكة مستبشرة والأجواء أجواء عيد سعيد بعد الصّلاة في مسجد قريب. وكنّا نهنّئ بعضنا ونستشعر نعمة ربّنا الّذي منّ علينا بمثل هذه التّجربة الفريدة من نوعها فأتممناها حقّ تمامها وقمنا بجميع أركانها. «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا...» وقد فرحنا فرح الّذي

أكمل واجباته وأدّى حقّ ربّه واستبشرنا بفضل الله ورحمته أن يغفر ذنوبنا ويتقبّل سعينا.

وكنّا في حلمنا ذاك إذ سمعنا صوت الأذان لصلاة الجمعة. وكان صوتا قويا جهوريّا مزلزلا كالرعد ملء السمع والبصر والفؤاد. كان صوتا يأخذ بمجامع القلب ويوقظ الغافل من سباته ويهزّه ويقول له: «أفق ويحك! حيّ على الصّلاة حيّ على الفلاح، هاهنا النّجاة هاهنا الفلاح..» والله لن يصلح حال امرئ لم تصلح له صلاة. وإنّ من أعظم أعمال الخير وأحبّها إلى الله الصّلاة على وقتها. وإنّ من أعظم الأماكن التي تقدّس فيها الصّلاة وتأخذ حجمها الّذي تستحقّه: الحرم المكّيّ والحرم المدنيّ.. هنا نتذكّر لمَ خُلِقنا وإلى أين نذهب...

كان صوت الأذان مهيبا. لكنّه على جماله وجلاله أفزع قلب طفلة صغيرة من الهند فصاحت صيحة الهارب من براثن الأسد. ولم تُفلح محاولات أمّها وأبيها لتهدئتها. فكانت كلّما سمعت الصّوت انخرطت في البكاء. فرقّ قلبي لحالها وعجبت لبراءة الأطفال..

* * *

يوم عيد

مكّة، 26 مارس 2010

نحن في يوم جمعة في مكّة المكرّمة، والإمام الخطيب هو عبد الرّحمن السّديس وقد خطب خطبة بعربيّة فصحى منمّقة لا أحسب أغلب الحاضرين قد فهموا معناها. وربّما كان موضوعها الحياة الزّوجيّة لو استقامت لي الذّاكرة. انتهت الخطبة وحان وقت الصّلاة. قرأ الإمام سورة الغاشية فكاد قلبي يقفز من بين أضلعي فرحا وعجبا لكرم ربّي. فما أكثر ما سمعت هذه السّورة بصوت السّديس في هاتفي. والآن أسمعها على الهواء مباشرة نابضة ومتفجّرة بالحياة.. فالحمد ثمّ الشّكر لله.

أوصاني أبي أن أنتظره كي نحدّد المكان الّذي سنجتمع فيه بعد أداء صلاة الجمعة. لكنّي وقفت أترقّبه طويلا فيما بدا لي. وحسبت أنّه ربما غيّر رأيه ولن يأتي. ولأنّ زادي في الصّبر قليل وعلمي بالحياة ضئيل، فقد قرّرت في لحظة تهوّر ساذج أن أمضي في سبيلي وأتدبّر أمري لاحقا، سيّما أنّ موعد الصّلاة قد أزف وعليّ أن أبحث عن مكان لي ولعمّتي وسط هذه الجموع الغفيرة من المصلّين. لكن مهلا، لم تسألوني بعدُ لم أوصاني أبي أن أنتظره وماذا كان يصنع وقد حان وقت خطبة الجمعة؟ وتلكَ قصّة صغيرة إن شئتم رويتها لكم.

حين توجّهنا إلى المسجد الحرام قبلها بساعات ارتقينا سلالما ثم ولجنا عبر بوّابة عظيمة. ورأيت خلقا كثيرا يتركون أحذيتهم وشباشبهم على أعتابها وقد ارتأيت الاحتياط فخبّأت شبشبي الجديد في كيس بلاستيكيّ دسسته

في حقيبتي. لكنّ عمّتي المسكينة ألقت شبشبها في اليمّ ولم تخف والنّتيجة الحتميّة لهذه الفوضى أنّها طبعا لم تجده بعدها حين احتاجت إليه. ممّا عكّر صفوها وأشعرني بالخجل لأنّي لم أخبّأ شبشبها كما خبّأت شبشبي. وقبل أن تحاكموني وتفرضوا عليّ أقصى العقوبات وأشنعها فإنّي منبئتكم بأمرين: أمّا الأوّل فإنّي خشيت على حقيبتي أن تمتلأ عن آخرها وتعيقني عن التّمتّع بالعُمرة، وثانيها أنّ عمّتي أكبر منّي سنّا وكان عليها أن تحرص لوحدها على شبشبها، أمّا الثّالث فإنّي ما حسبت أن شبشبها بذاك الحسن الّذي يجعل أفئدة من النّاس تهوي إليه وأيدي بالسّطو تمتدّ عليه.

وأمام وجه عمّتي الحزين وساقيها الحافيتين، سارع أبي إلى إيجاد حلّ لهذه الأزمة الطّارئة سيّما وأنّ وقت الخطبة قد أزف. كانت هناك ساحة كبيرة تناثرت فيها مئات الأحذية والشّباشب من مختلف الأشكال والألوان والأجناس. فذهب أبي وأخذ أحدها، إلّا أنّ اختياره لم يعجب ساق سندريلّا. هناك أوصاني بانتظاره ريثما يجد شبشبا آخر يليق بمقام الأميرة العجوز، وكي نتّفق أيضا على مكان اللّقاء بعد الصّلاة. لكنّي اعترضت بأنّنا سنحرم بدورنا إنسانا بريئا من شبشبه.. وفي الحقيقة لم يكن ثمّة من حلّ آخر! يبدو أنّ الأمور تجري هكذا حيثما حلّت الفوضى: أنت تأخذ شبشبي وأنا آخذ شبشبك في إطار التّبادل الثقافيّ والتّعارف بين الشّعوب والقبائل..

هذا ما حصل يا إخوان دون زيادة أو نقصان. وبيت القصيد ومربط الفرس أنّي عصيت أمر أبي فلم أنتظره. وانصرفت مع عمّتي دونما اتّفاق على مكان يجمعنا في زحمة الخروج من الحرم. وبعد الاستماع إلى الخطبة والصّلاة،

أخذت بيد عمّتي أهديها إلى سبيل الخروج مُتّبعة أفواج المصلّين. ولم أخف ولم أجزع حتى أنّي التقيت نساء من مجموعتنا وتبادلنا التّحيّات والابتسامات لكنّي لم أسألهنّ الصُّحبة ولا شعرت بحاجتي إليهنّ. ذاك أنّي كنت واثقة تمام الثّقة من سهولة الطّريق وبساطته مطمئنّة كلّ الاطمئنان إلى أنّي أسير في الاتّجاه الصّحيح ... مع فارق التّوقيت! فسرعان ما استشعرت نوعا من الغربة، فلا الطّريق هو الطّريق ولا الأكمة هي الأكمة، كلّ شيء بدا مختلفا وقاسيا ولا مباليا. فكان مَثَلي كمثل ليلى حين رأت الذّئب مكان جدّتها. فأمّا الطّريق فصارت له مخالب وأنياب، وأمّا الأكمة فما أكبر أذنيها، وأمّا الوجوه فما أشدّ الصّقيع المتسرّب من عينيها، وأمّا السيّارات فما أقوى صوتها وهي تزمجر بنا وتكاد تدهسنا. لم أرد التّصديق، لم أقوَ على التّصديق. ليست لديّ الشّجاعة الكافية لأواجه الحقيقة بكلّ عنفها وبشاعتها. فاستمتّ في مشي محموم عليّ أرى مكانا مألوفا أو علامة في الطّريق تنبّئني بأنّي في الاتّجاه الصّحيح. لكنّ كلّ خطوة كانت تقرّبني من السّراب، حيث يتبخّر الأمل في صحراء الضّياع. وكلّما تقدّمت تكشّفت لي الحقيقة الفجّة وقد اتّخذت كامل زينتها القبيحة: لقد أضعت الطّريق وفي عُهدتي عمّة عجوز منهكة بساق متورّمة تعوّل عليّ كي أعود بها إلى البيت.. إلى تلكم الغرفة الّتي ما فتئت أنتقدها قبل ساعات لكنّني الآن أبذل الغالي والنّفيس في سبيل الوصول إلى ظلّها الوارف مرّة أخرى.

* * *

تائهة في صحراء من مرمر

مكّة، 26 مارس 2010

لقد عصيت أمر ربّي كما عصى الرّماة أمر رسول الله ﷺ يوم أُحُد. وقلّما يُعصى القائد ثمّ يفلح الجند، وقلّما يُعصى الأب ثم يُفلح الأبناء. كان أبي قائد فرقتنا الصّغيرة وأصدر أمرا هو منتهى العقل والحكمة، لكنّ تهوُّر الجنديّة الصّغيرة وقلّة صبرها جعلها تتمرّد. وإنّ من ذكريات فُتُوّتي الأولى أنّني ما من مرّة أخطأت فيها في حقّ أبي وأمّي إلّا ورأيت عقوبة الله تنزل بي دون تأجيل. فخبرتُ آيات الله وصارت ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا.. ﴾ [الإسراء: 23] سُنّة كونيّة أراها رأي العين بالخبرة والتّجربة وليس فقط قرآنا يُتلى آناء اللّيل وأطراف النّهار..

حسبت أنّ أبي لن يرجع. وحسب هو أنّنا سنعود معا إلى النّزل وقدّر ربّي أن يعلّمني درسا. الآن أنظر إلى السيّارات والحافلات وحضائر البناء وأُطالع وجوه الرّجال والنّساء، كلُّهم غرباء، كلُّكم غرباء. أنت ضائعة يا إيمان، ضائعة. وأوجستُ في نفسي خيفة وتأمّلت عمّتي فإذا هي ضائقة متبرّمة منهَكة، تجرّ قدما متورّمة وتحلم مثلي بالرّاحة بعد التّعب، بالرّاحة الّتي استحقّتها بعد كلّ هذا الجهد والعناء في سبيل الله..

عدنا أدراجنا إلى نقطة الصّفر. عدنا إلى البوّابة الكبيرة الّتي خرجنا منها قبل دقائق. هناك رأيت رجالا يرتدون زيّا موحّدا فقرّرت أن أطلب منهم المساعدة. لكن ماذا عساي أقول لهم؟ ما اسم النّزل اللّعين؟ آه تذكّرت،

اسمه هوازن. استجمعت شجاعتي واقتربت من رجل طويل يرتدي الزّيّ السّعوديّ ويقف على الباب كأنّه حارس العصور الضّاربة في غياهب الزّمن. عرضت عليه حاجتي، لكنّه لم يعرف النّزل.. وا أسفي!

هناك أُسقِط في يدي، لكنّ بارقة أمل ومضت في خاطري للحظة، فاستخرجت مفتاح الغرفة من حقيبتي ووجدت عليه العنوان: شارع غزّة. لكنّ الرّجل لم يكن يعرفه هو الآخر. ولم يبد عليه أنه مهتمٌّ بمعرفته ولا حتّى بمعرفتي بل هو مهتمٌّ بالعودة لحديثه الشّيّق الّذي قطعته عليه حين عرضت مشكلتي. وفهمت أنّها تخصّني وحدي تماما كما قال أحمد خالد توفيق: «الظّلام لك وحدك، النّاس يفضّلونك حين تكون في أحسن حالاتك أمّا أن تكون كئيبا أو مريضا أو مفلسا، أمّا أن تكون ضائعا في صحراء التّيه، فالرّجاء لبس الكمامة وفرض التّباعد الاجتماعي. قد يتمنّون لك حظّا سعيدا في مواجهة الأخطبوط الّذي يلتفّ حول رقبتك ثمّ يعودون إلى أحاديثهم الفارغة، هذا في أحسن الأحوال...».

لكنّني لسوء حظّي لم أكن أعرف أحمد خالد وقتها فصُدِمتُ مرّة أُخرى وكنت أحسب أنّ أرض الله المقدّسة لا تحوي إلّا الملائكة ولا يمشي على أديمها إلا حفدة الصّحابة الأبرار ولا يتنفّس هواءها إلّا الأطهار والأخيار والدّببة الطّيّبون. وصوّر لي عقلي الطّفوليّ الذّاهل عن قبح العالم وقسوته أن، هؤلاء الرّجال سيهبّون توّا لنجدتي وسيتسابقون كالفرسان الشّجعان لنيل شرف مدّ يد العون لهذه الأميرة الجميلة التّائهة... نسيت تفصيلا صغيرا: لسنا في الجنّة، ليس بعد. نسيتُ أنّنا خُلقنا في كبد لنكابد ونجاهد ونكدح في الحياة وأنّ النّهايات السّعيدة فقط في الأفلام البائسة.

لم يكن بوسعي التّعويل إلّا على نفسي وشرعتُ أتلمّس الطّريق في غياهب النّسيان أحاول تذكُّر أماراتٍ لاحظتُها في الصّباح حين خرجتُ بقلب خافق وثغر باسم قد سحرني منظرُ الحمام إذ يحوم حول المسجد. أين الحمام الآن؟ هل نزلنا هذه السّلالم أم أنّنا مررنا على الجانب الآخر؟ آه يا ربّي.. أرجوك اهدني، دُلّني على الطّريق! لا يُعقل أن يكون الأمر بهذه الصُّعوبة لا بُدّ أنّني سأجد طريقي إلى النُّزل. لكن ما العمل وقد بلغ الإعياء بعمّتي كل مبلغ؟ هيّا بنا لنعد، هيّا تحمّلي أرجوك!

كلّما تقدّمنا قلَّ النّاس، فقد حان وقت الفطور. ما إن قُضيت الصّلاة حتى تفرّقت أفواج المصلّين وابتلعتهم الطُّرقات في مختلف الاتّجاهات، لكأنّهم تبخّروا في الهواء. أين الآلاف المؤلَّفة من المعتمرين؟ لا تسمع لهم ركزا. لا تسمع إلّا لُهاث عمّتي ووقع خطواتنا التّائهة في صحراء الضّياع، في صحراء من مرمر.

أخيرا وصلنا أمام البوّابة العظيمة، بوّابة الملك عبد العزيز. هناك وجدنا ساحة مترامية الأطراف يتوسّطها مركز تجاريّ فخم كأنّه جبل من الرّخام والمرمر وبجانبه بناية أخرى عظيمة. كان مشهدا جديدا تماما بالنّسبة لي، لم أرَ مثله هذا الصّباح. أي أنّنا تكبّدنا عناء المشي كلّ هذه المسافة من أجل لا شيء، وذهبت جهودنا أدراج الرّياح. هنا لم يعد في كأس الصّبر ماء، لم تقدر عمّتي المسكينة على الصّمود أكثر ولم تعد قدماها تحملانها. فتهاوت على الأرض وطلبت منّي أن أواصل البحث بدونها ثمّ أعود إليها ما إن أجد الطّريق الصّحيح، طريق الجنّة المحفوف بالمكاره، طريق الغرفة الصّغيرة في الطّابق الثّاني عشر.

كانت هذه صدمة أخرى، لكأنّي لم أقدّر حجم معاناة المرأة الطّيّبة حقّ قدرها. ربّما كانت على حقّ، ففكرتها ليست سيّئة. بل هذا ما يطلبه العقل وتفرضه الضّرورة. سأكون أكثر نجاعة وأخفّ حملا بدونها. هكذا شعرت بالارتياح، سيّما أنّي تركتها في مكان يعجّ بالمارّين. لن تشعر بالملل. ستتسلّى بمشاهدتهم ... بمشاهدة مسرح الحياة في حراكها الدّؤوب نحو الفناء.

رجعت أدراجي ولم أجد في طريقي مُعينا ولا وجها صديقا، لا صاحبا ولا رفيقا. كنت وحدي وسط هذه الدوّامة. كلّ خطوة تبعدني عن المبنى العظيم حيث خلّفتُ ورائي امرأة ضعيفة مسكينة جاوزت السّبعين. تخيّلت أنّني خسرتها إلى الأبد وأنّي لن أراها ثانية. تخيّلت أنّني وأبي سنعود إلى تونس بدونها. وبدا لي أنّي ابتعدت عنها لدرجة يستحيل إيجادها بعدها. ثمّ ماذا لو نسيتُ الطّريق إليها؟ لا بدّ أن أركّز في كلّ خطوة أخطوها. وماذا عن أبي؟ لا بدّ أنه قلق يبحث عنّا في كلّ مكان وقد تناوشته الهواجس. وبكيت! بكيت خلف سواد نظّاراتي الشّمسيّة، بكيت بكاء الخوف والجوع، بكاء من حاول ولم يفلح. لم أعد أحبّ هذه المدينة. ندمت على سفري، ندمت على الرّحلة بأسرها وليغفر الله لي. لم أعد أبصر إلّا مصيبتي. وانقلب السّحر على السّاحر، سحر البدايات قد ولّى وارتحل. لم أعد أراني إلا متشرّدة على باب الحرم يحلّ عليّ اللّيل ويحيق بي الظّلام ويأتيني الخوف من كلّ جانب. وتذكّرت قصّة الرّجل الّذي جاء في عُمرة وعاد دون زوجته الجميلة الّتي خطفوها.. تخيّلت أنّني ضعت وانتهيت وتبدّى لي الكابوس من وراء بحار الدموع. لكنّني أبدا لم أتوقّف، بل واصلت المضيّ قُدما نحو ... نحو الفندق!

لقد وجدته فعلا أو كدت. كان على بعد خطوات منّي شمالا في الضّفّة الأخرى من الشّارع. سألت آخر بشريّ يعترضني إن كان هذا هو الطّريق الصّحيح نحو نزل هوازن، وبالكاد أجابني «نعم». لكنّني لم أصدّقه، تخيلوا! كانت هيئته رثّة وبدا لي كأنّه نصف معتوه أو نصف غائب فلم أصدّقه. حسبت أنّه لا يعرف ما يقول وأنّي لو اتّبعت كلامه فستغوص قدماي أكثر في وحل التّيه والضّياع. وكانت تلك غلطتي الكبرى.. أو سوء حظّي. لكن سأتعلّم بعدها أنّ المظاهر خداعة وأنّه «رُبَّ أشعث أغبر إذا أقسم على الله أبره».. ورُبَّ أشعث أغبر يعرف الطّريق إلى الغرفة الضيّقة في الطّابق الثّاني عشر!

هكذا خسرتُ آخر لُعاعة من أمل. وبقلب كسير وروح ميتة أدرتُ ظهري إلى النّزل وعدت أدراجي أجرجر خيبتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، عدت أجرُّ خجلي وضعفي كمحكوم عليه بالإعدام وأرجو من الله أن أجد تلك العجوز المسكينة التي خلّفتها ورائي وأنّها ما تزال تتنفس.. سأجلس بجانبك يا عمّتي وسنتسوّل معا...

* * *

خريطة الكنز

مكّة، 26 مارس 2010

كنت أجرجر خلفي أعضاء ميّتة وقلبا تجمّعت فيه هموم الدّنيا والآخرة إذ صادفتُ رجُلين تبدو على ملامحهما الطّيبة والوداعة فقلت أجّرب حظّي معهما. فتبيّن أنّهما لا يعرفان النّزل لكنّهما أرشداني إلى التوجّه لوزارة الحجّ التي تقع وراء المبنى العظيم حيث خلّفت عمّتي. آه يا عزيزتي، كدت أطير فرحا حين وجدت أنّك لم تبرحي مكانك بل تجلسين في سلام هادئة مطمئنّة. وعجبت منك كيف حافظت على برودة أعصابك حتى أنّي صحت بك: «ألم تخافي يا عمّتي؟ ألم يخطر ببالك أنّني ربّما لن أجد طريقي إليك مجدّدا؟ لقد غبت عنك طويلا!» فأجبتِ: «لا أبدا فأنا أثق بك. ألم تعديني أنّك ستعودين؟ إذن أنا أُصدّقك». يا سلام على الحكمة والبساطة! طوبى لك وحسن مئاب!

كانت كلماتها بلسما لقلبي المثخن بجراحه. لكأنّها تعيد إليّ اعتباري واعتدادي بنفسي وإيماني بأنّني أستطيع أن أهتمّ بها وأحلّ هذه المشكلة. لكنّي اضطررت إلى إعلامها بالخبر السيّء، وهو أنّي ما زلت أبحث عن الطّريق إلى البيت، لكنّي سأجده قريبا بإذن الله. لم يبق إلّا أن أعثر على وزارة الحجّ العظيمة. تركت عمّتي بقلب أخفّ حملا ويمّمت وجهي شطر البناء العظيم. هناك برقت في خاطري فكرة طلب العون من العاملين في إحدى المغازات الفخمة المتراصّة أمام ناظري. ولا أذكر إن دخلت مغازة العود

والعطور الرّاقية حينها أو قبل أن أترك عمّتي في المرّة الأولى. لكنّي أتذكّر جيّدا أنّني كنت في حال مزرية من الخوف والتّعب تصرخ عيناي بصمت أرجوكم أنقذوني!

شعرت بأن البائع اهتزّ، وبدا متعجّبا ومرتبكا لرؤية هذا القدر الهائل من الجمال، عفوا، من الألم والبؤس المركّز في وجه فتاة. وحين تكلّم عرفت من لهجته أنّه مصريّ. وعرفت أيضا أنّه لا يعرف النُّزل اللّعين. وعجبت لهذا النّزل المزيّف كيف لا يعرفه أحد في مكّة! وأحسست بحجم الهوّة السّحيقة التي تفصلني عنه. فأنا غريبة ضائعة تائهة منهكة القوى محمرّة الوجه أتصبّب عرقا بعد ساعات من المشي تحت سياط الشّمس الحارقة. أمّا هو، فبائع في محلّ فخم متنعّم ببرودة التّكييف، آمن في سربه معافى في بدنه له قوت يومه قد حيزت له الدّنيا بحذافيرها. كان رجلا رحيما كريما بدا عليه التأثّر الحقيقيّ بمشكلتي والشّفقة على حالي التّعيس. فحاول جزاه الله خيرا الاتّصال بخدمة الاستعلامات وتحصّل على رقم هاتف النّزل ثمّ اتّصل بهم. وكنت أراقب منقذي بعينين تشعّان أملا وامتنانا وقد حبست أنفاسي متشبّثة بقشّة أُلقيت إليّ في بحر متلاطم من الشّكوك والتّساؤلات. لكنّ أحدا من المغفّلين العاملين بالنّزل لم يردّ على الهاتف. هناك عبّر لي البائع الطّيّب عن أسفه مرّة أخرى واقترح أن يملي عليّ رقم النّزل لأحاول الاتّصال بهم وحدي إذا أردت، لكنّني كنت في حال من الارتباك والخجل جعلتني لا أحسن الكتابة. وما عدت أفهم إن كان عليّ أن أكتب رقم 5 على يمين 1 أم على يساره، فرجوته أن يكتب هو الرّقم بيده وسارعتُ بالخروج متمنّية أن

ينسى وجهي إلى الأبد. وقد بذل الرّجل قصارى جهده في مساعدتي. ورأيت في نظرته تعاطفا حقيقيّا واهتماما صادقا بقضيّتي العادلة! آسفة يا سيّدي، فأنا للأسف من النّوع الّذي يغرق في كأس ماء ... حرفيّا.

أخيرا قرّرت أنّي سأغيّر قدري بيديّ، فمسحت دموعي ودعوت الله أن يعينني ويوفّقني. واتّجهت رأسا إلى آخر المبنى العظيم ثمّ انحرفتُ إلى.. إلى الجحيم! لكأنّي دخلت في بعد رابع أو في عالم مواز خامس أو سابع! أين هذه القذارة والفوضى والازدحام من النّظافة والفخامة والنّظام الّتي شاهدتها على الجانب الآخر من المصفوفة؟

الآن أرى سلسلة من المطاعم الرّخيصة قد اصطف أمامها خلق كثير، رجال ونساء بالمئات يبدو عليهم الفقر أو التّواضع، بعضهم واقف وآخرون يتدافعون وقسم ثالث يأكلون بشراهة ثم يلقون الفضلات حيثما اتّفق. رأيت وجوها هنديّة وأخرى باكستانيّة أو إفريقيّة تجمّعوا تحت راية الفقر والخصاصة. ولمحت نظرات قاسية وأخرى حزينة وأخرى متعبة. لم أكد أصدّق كلّ هذا التّناقض والتّباعد بين كواكب الوطن الواحد! لم يكلّفني الأمر سوى الانتقال إلى الجهة الأخرى من المبنى الهائل حتى وجدت نفسي في عالم آخر مسافرة دون تأشيرة. لا حاجة للاستئذان كي تلج دركات البؤس والرّداءة، لا أحد يريد المغامرة بالمجيء هنا على أية حال.

وعجبت كل العجب كيف أنّ الحاكم السّعوديّ قد اختار هذا الشّارع القذر الحقير ليبني فيه صرح وزارة الحجّ. وطفقت أبحث عن بناية عظيمة فخمة، لكن أينما نقّلت بصري لم أر إلّا الفضلات المتراكمة والأوساخ

الوقحة مع قطرات من الإحباط هنا وهناك. ومن شدّة الزّحام شعرت كأنّي في خليّة نحل وتاقت نفسي إلى الهروب. فاقتربت على استحياء من أحد المطاعم وسألت البائع عن وزارة الحجّ أين تكون وأنا أحسّ بالإحراج لأنّي حجزت اهتمامه وأخذت بضع ثوان من وقته الثّمين بينما المسكين منهمك في عمل مضن. فالجياع حوله كثير وهو لا يملك غير يدين اثنين لتلبية طلباتهم. لكنّني بحاجة إلى عونك يا صديقي، يجب أن أجد وزارة الحجّ ولو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي!

وأجابني الرّجل الطيّب: إنّها في الجهة المقابلة تماما. فأجلت نظري طويلا ولم أجد بناء عظيما، إن هو إلّا دكّان صغير بل كشك حقير لدرجة السّخف. حرام عليكم، ألم أكن ضائعة بما فيه الكفاية؟ أهذا ما يُسمّى عندكم وزاااارة الحجّ؟ هل نتكلّم اللّغة ذاتها؟ ألم يكن من المهمّ يا من أرشدتني إليها أن تنبّهني إلى أنّها اسم بلا مسمّى وأنّي بحاجة إلى مكبّرة لأراها وسط هذه الفسيفساء من المطاعم المتواضعة والفضلات المتكدّسة؟ لا حول ولا قوّة إلا بالله!

لكنّي شعرت بالارتياح رغم كلّ شيء. وتوجّهت صوب المبنى المضحِك تسبقني دقّات قلبي المتسارعة. كان عليّ انتظار دوري فهناك شخصان يقفان أمامي. أحدهما امرأة أضاعت قريبا لها. رثيت لحالها ثمّ تذكّرت حالي فانشغلت بمحنتي. لم أخرج بعد من عنق الزّجاجة الّذي يخنقني. أخيرا جاء دوري، واستقبلني شابّ باسم الثّغر هادئ رصين. وكنت على خلافه في حالة من الاضطراب شديدة، أتأرجح بين الخوف والرّجاء فسألته عشر مرات إن كان يعرف نزل «هوازن». ولو تردّد للحظة

في الإجابة لأُصِبتُ بانهيار عصبيّ على الهواء مباشرة. لكنّه سارع ضاحكا بطمأنتي وأشار إليّ كي أهدأ. ثمّ أخرَجَ ورقة وقلما ورسم لي رسمة على طريقة غوغل مابس. رسم لي شارعا ومسجدا صغيرا تذكّرت أنّنا مررنا به مباشرة بعد السّاحة التي تجتمع فيها أسراب الحمام. كيف أضعت المكان؟ يا إلهي، لقد كنت هناك! لقد وصلت هناك! تذكّرت الرّجل الّذي أكّد لي أنّي في الاتّجاه الصّحيح فلم أصدّقه. ما أشقى الغبيّ بغبائه! هيّا، حسبي لوما وعتابا.. سأسابق الرّيح نحو عمّتي.. لا تقلقي يا عزيزتي لقد وجدت خريطة الكنز ولن أضلّ هذه المرة!

هيّا، فلنعد إلى البيت هيّا. كنت متحمّسة وسعيدة، لكن سرعان ما ذهب الحماس وحلّ مكانه الإحباط حين رأيت عمّتي وقد أخذ منها الإعياء كل مأخذ. قدمُها المتورّمة تؤلمها أشدّ الألم، وجلوسها على الأرض لساعة زاد الطّين بلّة. المشي يعذّبها لكنّها تستبسل وتتقدّم خطوة بعد خطوة. لكنّ عملها البطوليّ هذا يستغرق وقتا طويلا. وقدّرت أنّنا لن نبلغ مقصدنا قبل ساعة من الآن، ولو كنت وحدي لما احتجت لأكثر من ربع ساعة...

ما إن مشينا بضع خطوات حتى بدأت عمّتي تتأوّه وتشكو وتتذمّر. ثمّ بدا عليها الغضب والحنق، حتّى أنّها صارت تلقي باللّائمة عليّ جهارا نهارا. كان الصّبر سهلا جميلا حين كانت جالسة مرتاحة، أمّا وقد صارت تمشي وتتعذّب مع كلّ خطوة تخطوها فقد دقّت ساعة الحساب والعتاب. هي الآن تعاقبني وتوبّخني كما يوبَّخُ الصّغير في المدرسة.. لأنّني أخطأت الطّريق.

وهتفت بي حانقة: «ماذا تصنعين بشهادتك يا باش مهندسة إن كنتِ عاجزة عن إيجاد النّزل؟ ويحك ماذا تصنعين بالجامعة إن لم تنتفعي بها درست؟».

وكنت أنا أيضا مُتعَبة وأعصابي مشدودة عن آخرها. قد لعبت بها الشّمس وتقاذفها التّيه في صحاري من مرمر وركلتها أقدام البحث والضياع، فضقت بكلام عمّتي ولم أطق صبرا واعترضت بأنّها ليست غلطتي بل غلطة التّنظيم السّيّء لهذه الرّحلة. فقد أطلقونا في البراري وحدنا دون بطاقة تعرّف بنا ولا رقم هاتف نستنجد به إذا ما احتجنا لمساعدة. وصرخت بأنّ دراسة الهندسة لا علاقة لها بالضّياع وسط زحام الحرم، وبإنّهم لم يعلّمونا خريطة مكّة في المدرسة. ثمّ صرخت بأنّنا وصلنا في عتمة اللّيل وبأنّي قد أحسنت صنعا حين كلّفتُ نفسي عناء رفع رأسي المثقل بالنّوم والتّعب لقراءة اسم النّزل اللّعين.. وبأنّني مثلها وافدة جديدة هنا وبأنّني سئمت وتعبت من تحمُّل المسؤوليّة وبأنّني.. وبأنّني...

كان هذا الشّجار أمرا حتميًّا لا حِول عنه ولا مفرّ منه. هكذا يحدث دائما في مثل هذه الحالات. يتوه اثنان في الصّحراء فيصبران ويتصبّران ويتعاونان. ثمّ يبدأ اليأس يزحف إلى القلب والتّعب يتسلّل إلى الجسم والسّأم يصعد إلى الرّوح، فيكون شجار ويكون صدام. فيتبادلان اللّومَ والعتاب ويكيلان لبعضهما التّهم بلا أسباب. إن هو إلّا الضّغط والتّعب وربّما الجوع أيضا. يذكّرني هذا بفيلم يذهب فيه زوجان إلى رحلة غوص ثم يبتعد القارب خطأ ويتركهما في عرض المحيط. فيصبران في البداية ويؤازران بعضهما البعض ثمّ في لحظة يأس وإرهاق شديدة ينشب الخلاف بينهما ويتبادلان العتاب..

كيف لا وهما عالقان في البحر تحوم حولهما أسماك القرش المخيفة؟! ولو كنت مكان المرأة لبدأت في الشّكوى والعويل منذ اللّحظة الأولى ثمّ لمتّ خوفا قبل أن تحوم حولي أصغر سمكة في المحيط.

لم أكن عالقة في المحيط وما خشيت على حياتي، لكنّني غرقت في كأس ماء ولم أحسن إدارة الأزمة التي وضعت فيها نفسي بعصياني لكلام أبي. ثمّ ثرت بسبب ضعفي وجهلي وقلّة صبري. والآن أشعر بالأسى والرّثاء لحال عمّتي المسكينة التي لم تعد تستطيع التقدُّم خطوة واحدة. وحسبتُ أنّها تبغي الجلوس لترتاح، لكنّها تمدّدت على الأرض وقد بلغ بها الإرهاق كل مبلغ. فسارعت بإحضار كأس ماء لها وأنا أجاهد نفسي كي لا تفلت دموعي أمامها. تقطّع قلبي لرؤيتها في أقصى درجات هشاشتها وانكسارها كأنّها مشرّدة بلا مأوى تفترش الأرض وتلتحف السّماء. هي على حقّ، ليس لديّ عذر. لقد وجدت نفسها عالقة بسببي. أنا الشّابّة المتعلّمة وهي العجوز الأمّيّة. كان من واجبي الاعتناء بها وعدم تعريضها لهذه المحنة القاسية.

ثمّ واصلنا السّير. لم تنفكّ المسكينة عن التأوّه والتّوجّع مع كلّ خطوة، كلّ حركة تسبّب لها ألما مبرّحا. أنا أعرفها جيّدا، ليس من عادتها الشّكوى ولا التّذمّر، هي الصّبر الجميل يمشي على قدمين. لكنّ قدميها تورّمتا وتعبتا من المشي في العُمرة وبعدها.. وكنت أتقدّمها وأبتعد لأتأكّد من صحّة الطّريق ثمّ أعود إليها. كانت لا تزال غاضبة مني. أو ربّما هي غاضبة من الألم والمرض وسوء الكِبَر... لست أدري..

أخيرا وصلنا إلى النّزل. وعوض أن أتمتّع بنعمة الوصول وأنسى ما فات،

شعرت بحنق كبير وغضب عارم يرتجّان في أضلعي وتمنّيت لو صرخت بملء فمي: «ليتني واصلت الطّريق وتبعت كلام الرّجل الأشعث الّذي صادفني.» كانت تلك جريمتي الوحيدة وغلطتي الّتي لا تُغتَفر.

حين فُتِحَت أبواب المصعد الكهربائيّ وخرجنا، اعترضنا أبي وكان متّجها للحرم فقد اقتربت صلاة العصر. لقد أمضينا إذن ثلاث ساعات في التّيه والضّياع تحت شمس لاهبة. سُرّ أبي لرؤيتنا وارتاح باله حتى أنّه كاد يضحك من المغامرة المؤسفة الّتي عشناها. كان سعيدا لكن في عجلة من أمره، وذهب إلى المسجد لا يلوي على شيء.

ما إن دلفنا إلى الغرفة حتى رأيت عمّتي قد نزعت ثوب التعب والإعياء وشمّرت عن ساعد الجدّ والعطاء وبدأت تتحرّك في أرجاء الغرفة كنحلة نشيطة تمارس أحبّ الأعمال إلى قلبها: تحضير الطّعام.. كأنّ شيئا لم يكن. كان دماغها عمليّا كدماغ الرّجل: كانت ثمّة مشكلة، والآن عدنا وانتهى كل شيء. ثمّ إنّ الأكل خطّ أحمر. ألا يفكّر الرّجال بهذه الطّريقة؟ أمّا أنا، فكان آخرُ همّي ماذا سنأكل وماذا سنشرب. كنت لا أزال تحت وقع الصدمة أرزح تحت وطأة «المصيبة» التي حصلت لي. وبينما كانت عمّتي على «جهلها» وأمّيّتها منهمكة في صناعة الحياة، كنت أنا منهمكة في صناعة الدّراما والدّمار الشّامل. وسيقول لي زوج المستقبل يوما إنّك تعشقين الدّراما وتتنفّسين الحزن وتسبحين في بركته الآسنة، وتتمرّغين فيها حريصة على أن يعمّ الماء كامل جسدك. تصوير دقيق لواقع مرير. أو ربّما بالغتُ في القسوة على نفسي. فالضّغط الّذي تعرّضت إليه طوال ساعات ليس بالأمر الهيّن. ومازلت

بحاجة إلى الوقت لتقبُّل ما حصل ولابتلاع جرعة الدّواء المرّ. من أجل ذلك مثلا، جلست متربّعة في سريري حريصة على إسناد ظهري إلى الحائط. ثمّ أمسكت رأسي بكِلْتَيْ يديّ وانخرطتُ في بكاء مرّ. بكيتُ كما يبكي الأطفال من كلّ قلبي، بكيتُ كطفلة حرموها من أمّها. وحين عاد أبي من الصّلاة كنت لا أزال في وضعي ذاك، جالسة على السّرير أبكي بحرقة، لا يرْقَأُ لي دمع، كبكاء عائشة ﵂ حين علمت بحديث الإفك.

أمّا عمّتي، فما عبأت بي ولا هالها مشهد الفتاة الحزينة التي تتساقط دموعُها أنهارا على أرض الغرفة. فقد كانت منغمسة في مهمّتها المقدّسة الّتي أتمّتها بنجاح وصار الغداء جاهزا في دقائق. لكن حين طال الأمر واستطال، سألَتني بضيق ودون أن تتوقف لتسمع إجابتي: «لم كلّ هذا البكاء الّذي لا جدوى منه؟ فلا هو يسمن من جوع ولا يغني من عطش! «. يبدو أن شهقاتي وآهاتي أزعجتها وكانت أبعد ما تكون من الشّفقة عليّ أو الرثاء لحالي.. هناك تذكّرت أمي وقلت في نفسي: «لو كانت حاضرة هنا لما تركتني للبكاء يفترسني، لكانت حضنتني وهدّأت من روعي...» وبسبب هذه الأفكار كنت أزداد عويلا. لكنّ عمّتي تجاهلتني ولم تفهم أنّني بحاجة إلى الطّبطبة، إلى كلمة طيبة.. لم يكن لديها الوقت لتُتعب عقلها البسيط وتفقه أنّ بكائي هو حاجة فيزيولوجيّة بحتة كيما أتخلّص من كمّ الضّغوطات الّتي سحقتني طوال المغامرة الشّيّقة.

أمّا أبي، فالآن وقد اطمأنّ على صلاة العصر صار متهيّئا ومتشوّقا لسماع كلّ التّفاصيل المثيرة. وكان يسألني فأجيبه من بين دموعي وجسدي يهتزّ من

شدّة البكاء. حتّى رأيتُ في عينيه نظرة لم أرها من قبل، ففيها تجمعت كل معاني الشّفقة والحنان. ومن أسفه عليّ ورحمته بي، لم يوجّه لي أيّ كلمة لوم أو توجيه. بل استمع إليّ وصبر على بكائي ثمّ دعاني بلطف كي أنضمّ إلى مائدة الغداء. لكنّ البطّة الدّميمة الّتي فيّ لم تشبع بعدُ من التمرُّغ في وحل الماضي والغوص في بِرْكة الأحزان الخالدة. أنّى لي الأكل يا أبي ودموعي لا تزال تسحّ بسخاء؟

لا أذكر ما فعلتُ بعدها. ربّما نمت من شدة الإعياء. فحين تأهّبنا لصلاة المغرب كنت على أحسن حال جسدا وروحا. لقد شُفِيتُ تماما مع حلول الظّلام وذهبت مستأنسة بأبي إلى الحرم. واتّفقنا هذه المرّة على مكان نتقابل فيه بعد انقضاء الصّلاة، فلا مجال للمجازفة. أظنّ أنّ عمّتي لم ترافقنا رغم قصر المسافة الفاصلة بين النّزل والمسجد. لكنّها نالت قسطها كاملا وافيا من البذل والتّعب وساقاها المتورِّمتان ما عادتا قادرتين على حملها. كان لا بدّ لها من استراحة محارب قبل أن تواصل الطّريق.

رأيت الحرم يتلألأ بأنواره السّاطعة. رأيتُ الكعبة أشدّ إشراقا وألقا في اللّيل منها في النّهار، كأنّها العروس ترنو إليها جميع الأنظار وتهفو لها القلوب وتأخذ بمجامع الألباب. ويتقافز الصِّبية بين رحابها ويتصايحون فرحا لرؤيتها والقرب منها، ويا حبّذا لَمْسِ طَرَفِ فستانها.. هكذا بدت لي الكعبة حسناء آسرة. وجمعتُ تركيزي وذهني لأحفظ الطّريق إليها. لم يكن يستغرق سوى ثلاث دقائق. كلّ ما علينا فعله هو قطع الشّارع ثم نجوز بأرض قيد الاستثمار وننزل سلالمَ ثم ندخل من باب كبير يحمل الرقم 45

إن لم تخنّي الذّاكرة. وكذلك يمكننا عبور جسر صغير لنجد أنفسنا في الطّابق العلويّ الّذي يطلّ على جمال الكعبة وجلالها وسحرها اللّيليّ. هو منظر يأخذ بالألباب، لكن لا وقت للتوقّف عنده كثيرا. علينا المسارعةُ لنحوز مكانا في الصّفّ الأماميّ. سوف لن أنجح في هذا الأمر ولو لمرّة واحدة. وعلى أيّة حال، فإنّ عمّتي في قادم الأيّام ستطالبني بالتوقّف في أوّل مكان يصلح للصّلاة. وما أن نتجاوزَ الباب الكبير حتى تتكدّس على الأرض والبسمةُ تعلو محيّاها. وفي آخر الأسبوع اكتشفت أنّ بإمكاني تركها في الجامع الصّغير الّذي نمرّ أمامه في طريقنا إلى الحرم. وصارت تفضّل البقاء هناك فرحة مسرورة. وقد قيل لي أنّ هذا المسجد الصّغير يُعتَبَرُ جزءا من الحرم، وبالتّالي فالصّلاة فيه أجرُها محفوظ ومضاعَف تماما كما لو كانت الصّلاة بجوار الكعبة الشّريفة.

كان لهذه الزّيارة اللّيليّة للحرم أثر البلسم الّذي يوضع على الجرح فيلطّفه ويندمل. لقد تصالحتُ بسرعة مذهلة مع هذه المدينة الّتي بدت لي قاسية وغريبة قبل سويعات، حتّى كدت أكرهها. وعذّبني الشّعور الّذي لم أحسب له حسابا. والآن أجدني فرحة مستبشرة، فقد ذهب الخوف وجاء الرّجاء. ورحل اليأس وحلّ الأُنْسُ. مضى زمن التّيه والضّياع ودقّت ساعة التّنعّم والاستمتاع. والتمعت في عينيّ نظرات شغوفة وأنا أجيل بصري في كلّ ما يحيط بي. حتّى أنّ وجوه موظّفي الاستقبال الكالحة في النُّزل لم تعد تزعجني، بل تعزّز رغبتي في الضّحك. لكن ما بال النّسوة اللّائي سيجلسن غدا في الشّارع ويكسرن قلبي؟

البؤساء

مكّة، 27 مارس 2010

أفقت قُبَيْل الفجر. ترائى لي طيف أبي قائما يصلّي في ربع المتر المربّع الشّاغر في هذه الغرفة الصّغيرة الّتي صُمّمت لاستقبال شخصين اثنين، لكنّ جشع صاحبها حوّلها إلى قفص للحمام كي لا أقول لبومات ثلاث. أفقت وقلبي يرقص فرحا. كان «صباحا» يُشْبه صباحات العيد حين كنّا صغارا. كيف لا أفرح وأنا سأصلّي الفجر في مسجد لأوّل مرّة في حياتي. وأيّ مسجد؟ مسجد رسول الله ﷺ. هنا لن يتبعني جواسيس بن عليّ، أولئك الّذين يطلقهم كالضّباع السّائبة يجوسون خلال الدّيار ويحومون حول المساجد يسجّلون في دفاترهم القذرة أسماء الغافلين المتلبّسين بجريمة صلاة الفجر في جماعة. أولئك المارقون الّذين خرجوا في العتمة، لا إلى دراسة ولا إلى عمل، إنّما حملهم الشّوق إلى بيوت الله يبغون تجارة مع الله، يُلبّون النّداء: حيّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ينيرون بحضورهم عتمة المساجد المقفرة في سنوات الجدب والظّلم والضّياع. وكأنّي أسمع تلكم الضّباع: أخرجوهم من قريتكم إنّهم قوم يتطهّرون.

أخرجوهم من قريتكم إنّهم قوم يصلّون.. نعم، في بلادي الصّلاة تهمة واللّحية جناية والحجاب ذنب لا يُغتفر. من أجل ذلك، ففرحتي في بيت الله الحرام مضاعفة. أنا وقومي من أشدّ النّاس تقديرا لنعمة أن تخرج إلى الصّلاة وأنت آمن مطمئنّ لا تخشى عين رقيب ولا وشاية قريب ولا خيانة صديق،

ولا شرطيًّا بلباس مدنيّ يخرج لك كأفعى من بين ثنايا الطّريق. ها هنا الأمن والأمان.

في مكّة تسمع الأذان لصلاة الفجر قبل الصّلاة الفعليّة بساعة كاملة. والأذان الأوّل إنما هو أذان لقيام اللّيل ودعوة مفتوحة للمؤمنين جميعا كيما يهجروا مضاجعهم ويتركوا نومهم اللّذيذ ليقفوا بين يدي الله العزيز. هذا وقت السَّحَرِ يا ناس، هذا شرف المؤمن لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد. هذا وقت يتجلّى فيه الله سبحانه ويقول: «هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من محتاج فأقضي له حاجته؟» لكنّنا ننام ونشخر ونتقلّب في فُرُشِنا، ويرنّ المنبّه مرّة أولى وثانية وثالثة فلا نكاد نفيق إلا قُبيل الشّروق.

ثمّ يكون الأذان الثّاني. حينها يجب عليك الإسراع بالخروج كي تملأ رئتيك بالهواء الصّباحيّ النّقيّ المنعش، وتغذّ الخُطى مع عشرات، بل مئات المسلمين والمسلمات الّذين يسعون إلى ربّهم على الأقدام ويطمعون في كرم الرّحيم المنّان.

قبل الوصول إلى الحرم جزنا بأرض قفراء بلقع يهوي إليها طير الحمام بالمئات، يطير فوق رؤوسنا وينزع منّا البسمات. ثمّ لاحظت وجود نساء سافرات الوجوه يلبسن السّواد ويتّخذن مواضع وكأنّهن يستعددن لأمر لم يتبيّن لي كنهه.

قُضِيت الصّلاة فقفلنا راجعين بقلوب تملؤها السكينة وسعادة الإنجاز. ومشينا نحلم بأسرّتنا الوثيرة ووسائدنا الّتي كأنّها سحائب اقتُطِعَت من

زرقة السّماء. هناك رأيتهنّ.. رأيت النّسوة المتّشحات بالسّواد يعرضن سلعا صينيّة رخيصة على قارعة الطّريق ويُطلقن عقيرتهنّ بالصّياح كعادة الباعة المتجوّلين أو المتمركزين عشوائيّا في الشّوارع والطّرقات.. سمعت أصواتهنّ تنادي أفواج المصلّين لعلّ جيوبا من النّاس تهوي إليهنّ وتشتري منهنّ شيئا أو أشياء. فهالني أمرهنّ وأنا الّتي ما زلت أنعم بطراوة العيش أميرة في بيت أبي. حتّى العمل ما زلت على أوّل عهدي به، فلم ينل مني وصب ولا نصب. وكنت أعود فأجد الطّعام اللذيذ والفراش النّظيف، حتّى سندويتش الفطور تعدّه لي أمّي الرّؤوم.

وقلت في نفسي: «يا للمسكينات المعذّبات في الأرض. أيّ مصيبة أخرجتهنّ من بيوتهنّ في عتمة اللّيل وجعلتهنّ يتخلّين عن أنوثتهنّ ليزاحمن الرّجال في تحصيل لقمة عيش مريرة؟ نسارع نحن إلى الفراش الوثير ويجلسن هنّ على التّراب والحصى للبيع والشّراء؟ هل يليق هذا بالنّساء؟ أليس لهنّ زوج أو أخ أو أب يصون كرامتهنّ ويحفظ ماء وجوههنّ ويكفيهنّ مؤونة البحث عن القوت اليوميّ؟ وأنا لست هنا بصدد مناقشة عمل المرأة أو أنّي ضدّه تماما، فها أنا ذا امرأة عاملة. لكن عن أيّ نوع من العمل نتحدّث؟ وفي أيّ ظروف؟ والله لو رآهنّ سيّدنا موسى عليه السّلام لعجب من أمرهنّ ولسألهنّ كما سأل بنتي شعيب ما خطبكما؟»

رثيت لبائعات الفجر وما دريت أن في جعبة اليوم مزيدا من القصص الحزينة والوجوه البائسة و.. والأعضاء الناقصّة! كمثل هذا الجمع من النّساء والأطفال الّذين تنقصهم يد هنا وساق هناك. ولا أدري أوُلِدوا هكذا أم لا.

لكن اضطرب فؤادي لمشهدهم مكدّسين على قارعة البؤس تحت شمس حارقة ككتلة من النّار ملتهبة. تسّاقط عليهم آلاف النظرات اللامبالية، تتجاوزهم ثم تهرع إلى الصّلاة. وقلت في نفسي: «أيُعقَل أن يتجمّع مثل هذا الكمّ الهائل من البؤس والحرم على بعد خطوات؟» وطفقت أسأل: «ما خطبهم؟ ما شأنهم؟ من هم؟ ضحايا أم متواكلون؟ أشهداء الحياة الظالمة أم متحيّلون؟ هذه المرأة الإفريقيّة من تكون؟ وهذا الولد من أين جاء؟ من أيّ قرية أثيوبية هربوا؟ وهذا الطفل ألَفَظَه حيّ فقير في الصّومال؟ أيّ حرب أهليّة هوت بهم إلى سحيق الدّركات؟ وأيّ قرية ظالم أهلها اضطرّتهم لهكذا حياة؟ إن كانت المملكة العربيّة السّعوديّة أرض الميعاد فبماذا وعدتهم؟ وماذا أعدّت لهم؟ وأيّ مستقبل أهدتهم؟ هذه اليد الغائبة هل قُطعت لأنّها سرقت رغيف خبز يابس في زمن الجوع والجفاف؟ أم أنّها لم تُخلق من الأساس؟ أيشقى هؤلاء لأنّ أميرا مترفا فارغ الرّأس مملوء البطن نسي أن يقرأ سيرة عمر وعدل عمر وفقه عمر الّذي أبطل حدّ السّرقة عام المجاعة؟ كيف يعيش البؤساء في هذا العالم القاسي فهو كالحجارة أو أشدّ قسوة؟ كيف يَحْيَوْن وسط الضّباع والوحوش؟» هذه وجوه ثلاثة تطالعني وأتساءل من فيها أحقّ بدراهمي المعدودات وقد أنفقتُ جلّها في المدينة المنوّرة.. رجل يُدمي القلب وامرأة تفتّت الكبد وطفلة تدقّق النظر. تزعجني نظراتها وتلاحقني وتسائلني: «بأيّ ذنب قُتلت؟».

قضيتُ طول الطّريق مشغولة البال مخطوفةَ الفؤاد أسأل ألف سؤال: «هل هؤلاء المساكين معاقَبون أم مُعاقون؟ وإذا تمّ القصاص منهم كما يقول

الشّرع، فهل استحقُّوا العقاب أم هو الظُّلم والقهر والقانون الغاشم الّذي لا يُسلَّطُ إلّا على الضُّعفاء والفقراء؟» أعلم جيدا أن الشّحّاذين والمتسوّلين في كلّ مكان في العالم، وتجدهم حتّى في أكثر الدّول غنى ماديّا وتقدّما. لكنّهم في المملكة العربيّة متسوّلون بدون أعضاء! سنذهب بعدها في جولة إلى مزارات الحجّ وهناك سأرى نماذج أخرى وسأقرّر أنّني فهمت أخيرا: «يبدو أنّ هؤلاء الأفارقة البؤساء ضحايا الألغام والحروب. قُضِي الأمر الّذي فيه تستفتيان.. أو هكذا أفضّل التّفكير».

قصدنا مزارات الحجّ وتوقّفنا عند مِنى ومزدلفة. ورأينا خيام الحجّاج البيضاء المنصوبة في عمق الصّحراء. وكانت هناك أرض واسعة رحبة وهضبة صغيرة يتربّع على قمّتها بناء أبيض يحِبّ بعض ضعاف الإيمان مصدّقي الأوهام تسجيل أسمائهم عليه، يعينهم على ذلك لونه الأبيض المسالم. ذلك أنّ الأسطورة تزعم أنّ من يكتب اسمه هنا فكأنّما يحجز مكانه في الحجّ وحقه في العودة إلى هذه البقاع المقدّسة.

لكي نصل إلى قمّة البناية كان علينا صعود السّلالم. وهناك وجدت نفس الوجوه الإفريقيّة السّمراء والأعضاء الغائب نصفها أو ربعها أو...! كان هناك أيضا باعة يعرضون سلعهم المتواضعة: قلائد وحليّ للنّساء ولعب أطفال وزرابيّ وتمور... ورأيت بائعا يعرض أفضل سلعة على وجه الأرض: شربَةَ ماء هنيئة باردة تنزل على الظّمآن بردا وسلاما فتواسيه وتُنسيه قسوة الشّمس ولهيب القيظ. فجأة رأيت شابا يافعا أسود اللّون قد انتصب على قوائم أربع حتّى ليحسبه النّاظر من بعيد ضربا من القردة المهندمة بلباس

الحشمة والحضارة. في المرّة الأوّلى لمحته من بعيد يمشي على أربع فتوقف كل شيء من حولي ولم أعد أرى سواه، وتعلّقت به عيناي. عجبت في أوّل الأمر ثمّ أُعجبت به وسحرني هذا الكائن الّذي لا يُشبه أيّ مخلوق رأيته في حياتي، لكأنّه على غرابته قطعة فريدة جميلة في متحف الخلق الإلهي.

ثم اقتربنا ووجدتني أمامه وصُدمت.. صدمني هذا الشاب بجمال وجهه وسحر ابتسامته وكثرة ضحكه. وكنت أتوقّع أن أرى الحزن في عينيه أو الخجل في نظراته أو الكآبة على تقاسيم وجهه، لقد صدمني هذا الجميل بطفولة قلبه ومرحه البريء. حتّى أنّه لم يكفّ لحظة عن الابتسام. يفترّ ثغره عن أسنان كالنّجوم مترصّعة في عتمة وجهه الضحوك. حتى أنّ نفرا من أصحابه مرّوا به فزاحموه ودفعوه حتى رأيته يتدحرج بضع درجات في السّلالم وخشيت عليه أن يصيبه مكروه. وعجبت من أصحابه كيف لا يملكون ذرّةَ رحمة ولا شفقة، لكنّ الشّابّ الصّغير تمالك نفسه واستردّ توازنه وأغرق في الضّحك وهو يلوّح لأصدقائه بكلمات لم أفهمها.

حين نزلت السّلالم طفقت أخاطب نفسي الجهول فقلت لها: «ما شأنك أيّتها المسكينة وما أدراك؟ إنّما مَثَل هذا الشّابّ وأصدقائه كمثل عائلة متماسكة الأركان يشدّ بعضها بعضا، هم في زهرة الشّباب يتمتّعون بالصّحّة والجمال، صحيح أنّهم مُعدمون وأنّ حظّهم في الدّنيا قليل لكنّ ضحكاتهم لا تكذب، بل هي نابعة من قلب خال من الأحزان. كم تدفعين ويحك أنت وأمثالك كي تضحكي مثل هذا الضّحك الطّفوليّ؟ كي ترتشفي مذاق البراءة الآنفة والأيّام الخوالي؟ هذا لَعَمري ضحك حقيقي لم تفسده قسوة الحياة ولا برودة

العالم. هؤلاء الشّباب يكوّنون عائلة ومن عيوبهم الجسديّة يستمدّون قوّتهم المعنويّة العجيبة. هم متّحدون وينتمون إلى عالم لا تعرفينه ولا تستطيعين سبر أغواره وفهم معانيه. وحريّ بك أن تراقبي من بعيد وتتعلّمي من جمالهم البريء.» طبعا سكتُّ حين أجمني تجاهل المعتمرين لهؤلاء البشر فكأنّهم لا يرونهم حين يمرون بهم ولله في خلقه شؤون.

* * *

إلى هنا تتوقّف مذكّراتي الّتي سجّلتُها في دفتري. وسيكون عليّ التّعويل من هنا فصاعدا على ذاكرتي المهترئة فاعذروني، سوف لن أحدِّد الأيّام بالضّبط في قادم الفصول. لقد كسلت عن خربشاتي اليوميّة أو لعلّي انغمست بكلّيّتي في عيش التّجربة عوضا عن تسجيلها.. كيف لا وقد شارفت الرّحلة على الانتهاء وأيّامي بل ساعاتي في مكّة صارت معدودة!

عُمرة ثانية

مكّة، أواخر مارس 2010

أذكر أنّني وأبي قمنا بمناسك العُمرة مرّة أخرى، قمنا بها وحدنا دون عمّتي. لقد أدّت ما عليها وبذلت قصارى جهدها ولم يعد بإمكانها المضيّ قدما. كان علينا حجز أماكننا في حافلة أجرة صغيرة والتّنقّل إلى بُعد ستّ أو سبع كيلومترات من الحرم المكّيّ وبالتّحديد في التّنعيم أو ما يُسمّى بمسجد السّيّدة عائشة ﵂. وصلنا بسرعة وتمنّيت لو كانت الرّحلة أطول. ثم افترقنا أنا وأبي للاغتسال فالصّلاة. وأخيرا لحق بي أمام الحافلة الصّغيرة التي ستعود بنا إلى مكّة.

أتذكّر الشُّبّان ذوي الملامح الآسيويّة وهم يردّدون «لبّيك اللّهمّ لبّيك» وأستشعر خصوصيّة التّجربة واستثنائيّة الرّحلة وفرادة الأجواء. ذاك أنّنا في هذه المرّة لم نعد مجموعة تونسيّة متجانسة، بل عيّنة صغيرة من المسلمين من مختلف الأجناس والألسنة والألوان. تعلّقت قلوبهم ببيت الله وساروا إليه يبتغون رضاه. كنت أردّد التّلبية بصوت خافت وأنا لا أكاد أصدّق أنّني أحيا هذه اللّحظات وأعيش التّجربة الّتي يحلم الآلاف من إخواني بخوض غمارها. فكيف بي والحافلة تتجوّل بنا حيث كان يمرّ الصّحابة؟ كيف بي وأنا ضيفة في بلد حبيبي رسول الله ﷺ؟ هذه عُمرة ثانية، سعادة ثانية مكتملةٌ أركانُها. ، أنيبنبببلهذا لعمري فتح مكّة الخاصّ بي. فتح وأيّ فتح!

وصلنا إلى الحرم وبدأنا في الطّواف سبعة أشواط حول الكعبة، لكن

سرعان ما أدركنا أنّ الطّواف في المساء ليس هو ذاته في الصّباح. فصحيح أنّك في المساء تتخلّص من ألسنة الشّمس الحارقة التي تلهب رأسك وكتفيك وتتمتّع بالظّلال الوارفة والنّسائم الباردة، لكنّك في المقابل تواجه أعدادا هائلة وأمواجا متلاطمة من المُطَوّفين الّذين يفكّرون مثلك. وفي المحصّلة، فالزّحام شديد والطّواف يستغرق وقتا وجهدا أكثر. لأنّك ستجد نفسك تسير في دوائر أكبر وتبتعد رويدا رويدا عن المركز الّذي يكتظّ محيطه بالنّاس ولا يقدر على الاقتراب منه ولا يصبر على الأذى في سبيله إلا العصبة أولو القوّة من الرّجال. أما أنا وأبي فذرّتان ضعيفتان مسالمتان لا تَنشُدان سوى التحرّك وسط المجموعة.

لكنّنا في حركتنا تلك افترقنا قليلا. فعوض أن أتشبّث بذراع أبي اكتفيت بالمشي إلى جانبه. لكنّ دوّامة المُطَوِّفين لا تسمح بهذا، وسرعان ما فّرقتنا حتّى صار أبي يقدُمني بمقدار رَجُلَين أو أكثر. فطفقتُ أسير وعيناي معلّقتان بظهره حتّى راودني طيف الضّياع المخيف. لم تكن ثمّة يد رفيقتي الّتي اعتصرت ذراعي في المرّة السابقة ولم تفلته حتّى انتهى الطّواف. في هذه المرّة كنت مع أبي، لكن ثمّة حاجز نفسيّ يمنعني من التّشبّث بذراعه لأنّني ببساطة لم أتعوّد على ذلك. فلم يكن أبي يأخذنا بالأحضان ولا يقبّلنا كثيرا ونحن صغار. في هذه اللّحظة رأيت بعض الأزواج يمرّون أمامي. وأحسست ربّما للمرّة الأولى في حياتي بأنّ شيئا ما ينقصني. وأخذني الحنين إلى رجل يسندني، يمشي ورائي ليحميني، يحيطني من جهاتي الأربع، يضع يديه القويّتين الغيورتين على كتفي ويقودني وسط الزّحام. معا ندخل دوّامة المُطَوِّفين ونخرج منها

بسلام. نعم من الجيّد أن تكون الواحدة منّا متزوّجة وهي في العُمرة، أرجو أن أعود يوما ما مع زوج المستقبل الّذي لم أقابله بعد.

لعبة الاختفاء التي «لعبتها» مع أبي مكرهَةً أفسدت عليّ الجانب الرّوحيّ للتّجربة. فلم أستطع التّركيز في الذّكر والدّعاء وإنما شُغِلت بتتبُّع الحركة الدّائرّيّة وألّا يغيب أبي عن ناظري. كنت في حالة استنفار قصوى، وأخوفُ ما خفتُهُ أن أتوه عن أبي. كان يمشي بخطوات سريعة حثيثة ويتلفّت مرارا ناحيتي ليتأكّد من أنّني قريبة أراه ويراني. شعرت بالتّوتّر. لكن في نفس الوقت كنت مأخوذة الفؤاد مسلوبة اللّبّ بكلّ ما تراه عيناي وتسمعه أذناي، بهذا المكان الخالد، بهذا الحلم الحيّ الّذي أنا بصدد التحرّك في جماله الباهر، كنت ذرّة من الرّمل تتحرّك حول كنز عظيم البركات.

حين أسبل اللّيل رداءه المظلم على العالم، كان المسجد الحرام يرفل في أبهى حلله ويتلألأ بألف نور ونور. كلّ شيء في اللّيل له طعم آخر، رونق آخر، سحر آخر، أو كما يقول أهل الخليج: اللّيل «غير».. أي مختلف تماما. كلّ شيء جميل كجمال السّعي بين الصّفا والمروة. ورؤية الرّجال يهرولون متأسّين بأمهم هاجر أثّرت في نفسي. نحن نمشي لأنّها مشت هنا قبل مئات السنين. نحن نقتفي أثرها ونقتدي بخطاها. هذه قصّة بدأت منذ زمن سحيق ولا زالت متجدّدة إلى اليوم. ستبقى أفواج المسلمين والمعتمرين تخلّد هذا السّعي المبارك لطلب الحياة والرّزق، للوفاء بالمسؤوليّة وبِرًّا بطفل رضيع بحاجة إلى شربة ماء. هذا والله ممّا ترجف له القلوب وتقشعرّ الأبدان وتلهج الألسنة بالذّكر والدّعاء.

نمتُ ليلتي تلك فرحة مسرورة بجهادي البسيط في سبيل الله. واستيقظنا باكرا لنتسحّر فإنّ في السّحور بركة، واليوم تبدأ الأيّام البيض، وهي الثّالث والرابع والخامس عشر من الشّهر العربيّ، ومن المستحبّ الصّيام فيها كما علّمنا رسول الله ﷺ. وقد سُمِّيت بيضا لبياض لياليها من جرّاء اكتمال دورة القمر ووجوده من أوّل اللّيل إلى آخره. وما أحوج الفقراء والمُعدَمين من أمثالنا إلى عمل صالح يقربّهم إلى الله وسنّة نبويّة يتشبّثون بها. وكفى بالصّائم فرحا أن يتناول وجبة سحور لذيذة قوامها: قهوة بالحليب وسبع حبات من العجواء وخبز وزيت زيتون. كنت أقضم العجواء بنهم وأتعجّب من حلاوتها، لكأنّها قطع من الحلوى. وتذكّرت كيف أنّني حين تذوّقتها للمرة الأولى بدا لي طعمها غريبا، ثمّ سرعان ما ألفتها. حتّى لقد فضّلتُها على تمرنا التّونسيّ الأصيل. لكن اليوم، وبعد كلّ هذه السّنوات بدّلت رأيي. فالدقلّة التّونسيّة هي عندي ألذ أنواع التمور، بل الغلال جميعا وهي مع الرّمّان والبرتقال من النّعيم المعجل في الدّنيا. لا سيّما إذا رافَقْتَها بحبّات لوز مقرمشة ورشفات من شراب ساخن بطعم النّعناع «والتّرنجيّة»[1].

كان سحورا لذيذا ومشبعا وبسيطا لا يستغرق تحضيره وقتا ولا جهدا، وفي كلمة واحدة كان سحورا طيّبا مباركا فيه. فلم يبد لي الصّيام بهذه السّهولة واليسر كما بدا لي صيام تلكم الأيّام الثلاثة في مكّة المكرّمة. فقد مرّت الأيّام البيض كأنّها حلم لذيذ. وكانت فرحتنا مضاعفة، وللصائم فرحتان فرحة حين فطره وفرحة حين لقاء ربّه وثالثة في حالتنا بسهولة الصّوم وعذوبته

(1) نبتة رعي الحمام، أو ساق الحمام أو رجل الحمام

ويسره. بل أنّي أحسست أنّني أقوى على صيام يومين متتاليين دون إفطار. ولم أدر على وجه الخصوص ما سبب هذه المعجزة الصّغيرة: أهي حبّات العجواء ذات الفوائد الجمّة؟ أم هي بركة البقاع المقدّسة؟ أم هو زيت الزّيتون والخبز؟ أم أنّ السرّ في الحليب الحجازيّ المركّز؟ أم هو خليط من كلّ شيء؟ كل ما أعرفه أنّني ما عرفت جوعا ولا عطشا طيلة الأيّام الثّلاثة الحارّة من أواخر شهر مارس. حتّى صارت ذكرى الصّيام في مكّة كوردة زكيّة لا ينقطع شذاها، بل يملأ عبيرها قلبي ويحيطه من كلّ جانب حتّى صارت أقصى أمنياتي عُمرة في رمضان مع رفيق المستقبل وصاحب الظّلّ الطّويل. عُمرة نركض فيها معا ونحلّق بجناحي صحّتنا وشبابنا نسارع إلى مغفرة من الله وجنّة عرضها السّماوات والأرض...

مرّت الأيّام جميلة متشابهة ومختلفة. ففي كلّ يوم كنّا نكتشف وجوها جديدة وزوايا عديدة وأسرارا وألوانا وأنماطا لهذه المدينة العجيبة الحيّة المزدحمة بفسيفساء بشرية يعزّ إيجاد مثيلها في أيّ مكان آخر من الأرض. كانت أيّاما بهيجة ومؤنسة لولا أنّنا ارتكبنا تلك الحماقة.. حماقة الابتعاد عن مكّة.

* * *

هيّن ليّن سهل

مكّة، أواخر مارس 2010

نعم، ارتكبنا يوما حماقة الابتعاد عن مكّة وأخَذَنا الفضول كي نتعرّف على جدّة الّتي تبعد عنها ثمانين كيلومترا. كان هذا اقتراحَ قائد الرّحلة الّذي وفّر لنا سيّارة أجرة كبيرة لكنّ الأماكن فيها محدودة. وقرّرنا أن نخوض التّجربة... كان على الرّاغبين في الذّهاب النّهوض باكرا وحجز مقاعدهم مسبقا، فكما قال الشّابّي «فمن نام لم تنتظره الحياة». لكنّنا نهضنا وسرنا في سبيل الحياة ثم انتظرنا وشبعنا انتظارا مدّة ساعة أو أكثر حتّى تكتمل المجموعة ونتشرّف بحضور الأشخاص المهمّين جدّا كابنة أخت قائد الرّحلة مثلا وولدها الصّغير..

أمّا أنا فقد استثمرتُ وقتي واغتنمت الفرصة كي أشتري دمية لابنة أختي الحبيبة آية. كانّ هناك الكثير من الدُّمى الصّينيّة الجميلة والرّخيصة. اخترت لصغيرتي الشّقراء دمية تلبس فستانا ورديّا. لكن بعد أن دفعت ثمنها ومشيت خطوات، وبسبب تردّدي المزمن، لم أكن راضية عن اختياري تماما. فغالبت خجلي وعدتُ إلى البائع أتعثّر في أذيال الحيرة والضّياع. وكان رجلا عبوسا قمطريرا ممّا زاد قلبي رَهَبا. لكنّني مضيت قُدُما يدفعني سموّ الغاية وعدالة القضيّة. وكنت في حيرة من أمري حين لحقني أبي وناداني لألحق به (وفي رواية أخرى صرخ بي وانتهرني) كنت قد أمضيتُ ربع ساعة واقفة أقلُب النّظر ببلاهة بين الدُّمى ولا أستقرُّ على رأي، وكأنّ المسألة مسألة حياة أو موت أو ارتباط مصيريّ.

تردّدت طويلا بين الدّمية التي تلبس الفستان الورديّ والأخرى التي تلبس الفستان الفستقيّ لكنّ وجهها أجمل وأكثر وداعة. وهنا ألفت انتباهكم إلى أنّي بصدد الحديث عن نفس الدّمية ونفس الموديل، نفس الوجه.. الاختلاف الوحيد في لون الفستان وفي الملامح. ولو سألتَ نصف سكّان الكرة الأرضيّة لما وجدوا أيّ فرق بين الاثنتين عدا لون الفستان. أمّا أنا فتوسّمت خيرا أكثر في صاحبة الفستان الفستقيّ وطفقت أتردّد كأنّني أختار خطيبة لابني وليس دمية سخيفة لابنة أختي. أخيرا حسمتُ أمري وخيّرت الوجه الطّيّب الودود على اللّون الورديّ للفستان. هكذا أقنعت نفسي وواسيتها بينما كنت أمشي وأستمع لأبي يلومني لأنّه بسببي لن نجد مكانا في سيّارة الأجرة. كان همّي الوحيد منصبًّا في الدّمية التي تلبس الفستان الأزرق وتساءلت في إشفاق: «ألم تكن هي الأفضل؟»

كذلك سيّدي القاضي أُعلم جنابَكُم أنّه كان عليّ أيضا التّثبّت من أنّ الدّمية ترقص جيّدا وتغنّي حين نضغط على زرّ التّشغيل وأنها إن لم تفعل فبسبب نفاد البطّارية وليس لعيب فيها أو تشوّه خلقيّ لا سمح الله. وتفقّد كلّ هذه الأمور الفنّيّة والتّقنيّة يتطلّب وقتا كما لا يخفى على سيادتكم، فأرجو أن تعذروني.

ها نحن أولاء نقف واجمين أمام السّيّارة الّتي كادت تمتلئ عن آخرها.. كان الطّلب عليها أكثر من العرض. وكان من المفترض أنّ لنا الأوّلويّة في الرّكوب، فقد خرجنا باكرا وكنّا أوّل الحاضرين. لكن بسبب غيابي وطول تردُّدي أمام الدُّمى الصّينيّة السّخيفة، لم يعد هناك مقاعد لنا نحن الثّلاثة بل مقعدان فقط. وحُقّ لأبي أن يغضب ويلومني. لكنّ أكثرنا شعورا

بالإحباط كانت عمّتي لأنها أيضا كانت أكثرنا حماسا للمشاركة في الرّحلة. فغضِبت، ومثلها قلّ أن يغضب. وما زاد الطين بلّة تهوّر إحدى الحاضرات إذ توجّهت لها بالخطاب فقالت أنّه من الأفضل لها ألّا تشارك في رحلة كهذه، فهي امرأة عجوز ولن تتحمّل مشقّة الطّريق وعناء السّفر. وذهابُ مثلها مغامرة لا تؤمن عواقبها لا سيما وساقاها تؤلمانها... ومضت المتحدّثة تتصنّع الرّحمة والشّفقة بينما هي تمارس أفضل لعبة تتقنها وتحبّها المرأة: لعبة الغواية والمناورة وإمالة القلوب وسلب العقول حتّى الوصول لمبتغاها.

لكنّ صاحبتنا ارتكبت خطأ فادحا وذنبا لا يُغتفر. لقد أيقظت المغفّلةَ الوحش الغافي في عمّتي. ولا أعني هنا الوحش الطّيّب الإيجابيّ الوديع الّذي كثيرا ما تلوكه ألسنة دجّالي التنمية البشرية حين يكذبون على ملايين المغفّلين فيبيعونهم كلاما فارغا مقابل آلاف الدنانير، إنّما حديثي هنا عن الوحش الكاسر الجريح، الوحش الشرّير الكامن داخل كلّ بشر تحسبه ضعيفا وتعيّره بضعفه، كلّ مريض بائس يائس، إيّاك أن تقول له ما يجب عليه أن يأكل أو لا يأكل، ستراه ينشب فيك مخالبه وأنيابه ويرى فيك مرضه ووهنه، فيتّخذك عدوّا لدودا يصب عليه جام غضبه وجملة علله. إيّاك أن تخبر سيّدة عجوزا مُحِبّة للحياة مقبلة على المغامرة بأنّها لا تصلح لها وبأنّها كبرت وهرمت وفات قطارها. حينها ستوقظ الوحش الّذي فيها وستلتهمك في لقمة واحدة. فما إن أنهت المرأة كلامها حتّى صاحت عمّتي معترضة وقالت بأنّ صحّتها عال العال وبأنّها نامت جيّدا في اللّيل وهي الآن في كامل صحّتها وتمام نشاطها ووفرة قوّتها، وبإمكانها أن تسافر وتجري وتقفز وتطير لو اقتضى الأمر!

وبينما انهمكت النّسوة في هرجهن ومرجهن جاء الحلّ السّحريّ على يد.. رجل!

ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها · فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

نعم أخيرا حُلت أزمة الشرق الأوسط كأن لم تكن. فمن أين جاء الفرج؟ ومن هو المنقذ؟ هو بعينه لا أحد غيره. ذاك البطل الأولمبيّ في الرّفق واللّين والمسالمة، ذاك الّذي رغم أن الله لم يعطه بسطة من الجسم والعلم إلّا أنّه حباه بقلب رحيم وطبع حليم، فهو هيّن ليّن سهل، ومع ذلك فهو تجسيد للرّجولة في أسمى معانيها، وللشّهامة والمروءة التي عزّت على من يبتغيها. وكما أنقذنا بالأمس في غزوة البضائع والأمتعة فها هو اليوم يستغلّ ضعف بنيته وقصر قامته لينحشر في السّيّارة مقرفصا ومتنازلا عن مكانه، وبذلك حلّت مشكلة المقعد الوحيد النّاقص.. حُلّت المشكلة بفضل خُلُق رجل واحد لو لخّصتُه في كلمة لقُلتُ: الإيثار. إنّه بطل بحقّ، لكنّه بطل مغمور لا تتحدّث عنه القصص ولا نشرات الأخبار.. وأجمل ما فيه أنه لا يرى نفسه قد صنع شيئا رغم التّضحية الجسيمة على مدى سفر طويل. ما زلتُ أذكر وجهه وملامحه، سلام على الطيّبين.

* * *

خطيبي عمره خمس سنوات

جدّة، مارس 2010

انطلقت بنا السّيّارة تنهب الأرض نهبا. سبعون كيلومترا تفصلُنا عن جدّة، عن اكتشاف رقعة جديدة من الكرة الأرضيّة، من أرض الحجاز بالتّحديد. كان البعض يطالب بتشغيل التّكييف لأنّ الحرّ شديد، بينما آخرون يفضّلون الاستغناء عنه. أمّا أنا، فلم يُعجبني السّائق بالأساس ولم أرتح إلى طلعته البهيّة. شيء ما ربّما يُسمّى الحدس أخبرني بألّا أثق به.. وللأسف سيصدُق حدسي فيما بعد. لكن مهلا، كيف بي إذ أفسد عليكم عنصر التّشويق؟

وصلنا جدّة بحمد الله سالمين. ونزلنا أمام مسجد غاية في الأصالة والجمال، تحيط به حديقة خضراء مزهرة تتوسّطها نافورة. وفي النّافورة ماء، أي أنّها حقيقيّة ليست كعشرات النّافورات المعطّلة في بلدي.

كان من المُفترض أن نعود إلى مكّة إثر صلاة العصر، هكذا اتّفقنا مع السّائق. لكنّ شيئا ما منعه من الحضور في الوقت المحدّد. ولا أدري إن كان هذا الشّيء ظرفا طارئا خارجا عن إرادته كأن تصيبه ذبحة قلبيّة أو تمرض أمّه أو يسقط أحد أبنائه فتنكسر رجله، أم أن الرّجل خُلقه الكذب وديدنه النّفاق، فإذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان. وعلى أيّة حال، فقد تركَنا لتشرُّدنا في مدينة لا نعرف فيها أحدا دون حتّى أن يردّ على اتصالاتنا المتكرّرة اليائسة. لكن قالت العرب قديما: «مصائب قوم عند قوم منافع»، وبينما كنت أنا وأبي وعمّتي الصّائمين نتحسّر على فوات الوقت ورحلة حسبناها قصيرة

فإذا بها تمتدّ وتستطيل حتى تبتلع اليوم كلّه. فلا صلاة في المسجد الحرام ولا إفطار في عشّنا الدّافئ ولا طعام أعدّته أياد حانية ماهرة. وإنّما سيكون مصيرنا فوات الأجر والثّواب وأكل المطاعم اليابس اليباب، بينما أُسقط في أيدينا نحن الثّلاثة، كانت صويحباتنا يضحكن لخبر تأخّر السّيّارة عن القدوم، حتى حسبت أن السّائق لو جاء، لصرفنه وذهبن يتسابقن إلى المحالّ التّجاريّة في جذل وانتشاء. فجدّة مدينة ساحليّة تتقاطر عليها السّفن ليل نهار و«كلّ شيء فيها يُباع بأقلّ الأسعار» خاصّة إذا ما قارنّاها بمكّة والمدينة. من أجل ذلك حين التقينا بعد صلاة العصر اكتشفت بهلع أن رفيقاتنا لا زلن في أوّل «يومهنّ» الّذي نذرنه للتّسوّق المقدّس، وكأنّ الواحدة منهنّ تقول: «أنا أتسوّق إذن أنا موجودة». وكان بإمكاننا البحث عن وسيلة أخرى للعودة إلى مكّة، لكنّهنّ أصررن على متابعة التّجوّل في جدّة ولم يشبعن منها. فالمحالّ كثيرة والسّلع مكدّسة والطّقس جميل فعلام التّعجّل على الرّحيل؟ هكذا حكمن ولم يكن من الانصياع لرغبتهنّ بدّ أو بديل.

كانت جدّة كما رأيتها مدينة عصريّة متطوّرة فيها المباني الشّاهقة والواجهات البرّاقة والسّيّارات الجديدة والشّوارع النّظيفة والمحالّ العديدة. كلّ شيء فيها مرتّب ومنظّم. وفيها نساء يلبسن حجابا «عصريّا» أيضا، فترى الواحدة منهنّ تتستر بجلباب أسود فضفاض ثم تغطّي رأسها أو تكاد، فهناك خصلات شقراء متمرّدة تطلّ على الخارج وتصافح الهواء، ثمّ هي ترتدي نظّارات شمسيّة آخر صيحة وتضع مساحيق الزّينة على وجهها فكأنّها إحدى نجمات السّينما. فعجبتُ إذ صوّرت لي سذاجتي وقلّة درايتي

بأحوال البلدان وتقلّب الفصول والأزمان، أنّ مثل هذه النّماذج المتبّرجة لا مكان لها في بلاد الحرمين. ثمّ تذكّرت فإذا أنا مبصرة: أوليست جدّة مدينة ساحليّة؟ ففيم الاستغراب؟ كلّ المدن السّاحليّة منفتحة على البحر وأهله. أقولها لأنّي أصيلة مدينة بنزرت، أقصى نقطة في شمال تونس بل في شمال القارّة كلّها، وكثيرا ما اتُّهمنا بمبالغتنا في الانفتاح والتّفتّح ...

عند تجوّلي في الشّوارع والمحلّات شدّ انتباهي كثرة الهنود بنظراتهم الثّاقبة ووجوههم العابسة. وقد حاولت اقتناء «ساري» وتخيّلتُني أرفل في ذاك الزيّ الهنديّ التّقليديّ الشّهير، لكنّني دُهشت حين علمت أنّي إنّما أدفع نقودي مقابل خرقة طويلة جدّا من القماش. إذ بيّن لي البائع أن النّساء الهنديّات يلففن هذه الخزمة على أجسادهنّ ويشددنها على خصورهنّ دونما حاجة إلى إبرة ولا خيط ثمّ يأكلن الطّعام ويمشين في الأسواق ولا يندى لهنّ جبين. فعجبت لحذقهنّ وشجاعتهنّ، فكيف تطمئنّ الواحدة منهنّ وترضى أن تستر جسمها ببضع لفّات من القماش لا يجمعهنّ جامع ولا تشدّ أزرهنّ غرزة ولا مانع، ولله في خلقه شؤون.

ففكّرت وقدّرت أنّ الثّمن غال والمال قليل والألوان فاقعة، والخيّاطة جاهلة وما أحسبها إلّا ناظرة إلى القماش ببلاهة ثم مدّعية في العلم معرفة ووجاهة، ثمّ مفسدة لأمتار القماش والنّتيجة خسران مبين ولا عزاء للمغفّلين. وعرفت أنّي في غنى عن هذا الهرج والمرج. وربّما لو كان البائع هاشَا باشَا حاذقا مضيافا، ربّما لو قدّم هو وزميله عرضا هنديّا راقصا على شرفي، أقول ربّما، لكنت اشتريت بمنتهى الغباء والسّذاجة رزمة من القماش

الفاقع لونه دون أن أعلم لها مصيرا. أمّا هذا العبوس والجمود فلا دواء له إلّا الإعراض والهروب من هذا المحلّ المظلم والوجوه الكالحة.

لكنّ وسط هذه الظّلمات هناك بصيص من نور وخيط رفيع لكنّه متين من ضياء أنار لي ذلك اليوم المشهود. فمنذ الصّباح وعندما انحنيت لأصعد في السّيّارة، فوجئت بطفل صغير يتناول وجهي بين يديه ويتحسّس وجنتيّ وقد أشرقت ملامحه بابتسامة عريضة. لم أدر أكانت تلك طريقتَه في التّعبير عن فرحه بقدومي أم أنّه كان ينظر إليّ كما يشاهد الصّور المتحرّكة في التّلفاز وقد سرّه التأكّد من أنّني لست فقط صورة بل كائنا بشريّا من لحم ودم يمكن لمسه ومشاركته متعة السّفر والمغامرة..

كنت أعرف هذا الطفل الّذي رافقنا طوال الرّحلة مصحوبا بأمّه الشابة وجدّته الحنون. وظننته في السّابعة أو الثّامنة من عمره، إلّا أنّه في الحقيقة لم يجاوز الخمس سنوات. ورغم أنّي لاحظت اهتمامه السّابق بي، إلّا أنّي لم أكن أتوقّع أن يفرح برؤيتي ويحتفي بي إلى تلكم الدّرجة، فأحسست نحوه بالامتنان، جميل أن يحبّك إنسان..

– ما اسمك؟

– إيمان

تجاذبنا أطراف الحديث في المسجد، عرفتُ اسمه وسنّه.. وحكى لي عن أخيه الأكبر الّذي يعيش في المهجر وبثّ لي شوقه الشّديد إليه.. كان مثلي وحيدا.. وحيدا بين الكبار، يريد أن يلعب ويكره الانتظار.. وسرعان ما

تنبّهَت لصداقتنا الوليدة العيون ولاحقتنا الأنظار، فقهقهت الجدّة وهي تداعب كنّتها: «يبدو أنّ ابنك قد وجد ضالّته في هذه الفتاة، ما رأيك لو نخطبها له؟».. ولم أر بُدًّا من المجاملة والابتسام...

أصرّ لؤي الصّغير على مرافقتي في التّجوال. لم يكن يأبه لأمّه وجدّته، بل كان يريد أن يبقى معي. وقد لاحظ الجميع اهتمامه الزّائد بي. في البداية ارتاحت أمّه وجدّته لذلك، فكأنّ ابنهما وجد طفلة من سنّه يلعب معها، ورفيقة رحلة تطيب له مصاحبتها.. لكن عندما تطوّر الأمر فأصبح يفضّل صحبتي على رفقتهما لم يعد الأمر مضحكا.. بل إنّي شعرت بالغيرة في نظرة أمه وهي تناديه بعصبيّة. أمّا جدّته فلم تتمالك نفسها من أن تنهره.. حتّى أبي ضاق ذرعا بالولد المسكين، كان يريدني أن أصرف اهتمامي كلّه لأخته العجوز وكأنّ ملاطفة طفل يطلب رفقتي أمر لا يجوز.

مازلت ممتنّة لهذا الولد البريء الّذي جعل سفري أجمل، لهذا الطّفل الّذي رأى فيّ ما عجز عن رؤيته الكبار، فقد كانت هناك فتاة شابّة تصغرني بعشر سنوات. ألم تكن مناسبة أكثر ليرتاح إليها ويلعب معها؟ لماذا اختارني أنا؟ أتراه تفطّن إلى الطّفلة الكامنة بداخلي؟ أم أنّ الله بعث لي من يؤنسني في وحشتي، من يواسيني في غربتي بين الكبار، من يمسح على قلبي الّذي اشتاق لمن يسكنه وطال به الانتظار؟ شكرا أيّها الملاك الصّغير شكرا لخيوط الدفء التي نسجتها بأصابعك الدّقيقة حولي.

هيا كفكفوا دموعكم فقد انتهت قصّة سندريلّا والأمير الصّغير وبدأت قصّة أخرى بعنوان: الطّريق إلى مكّة. تكدّسنا كخراف ضالّة أمام المسجد

الّذي بدا كحمامة بيضاء في عتمة ضياعنا. وقفنا كطفل أضاع أمّه في الزّحام فعاد إلى حيث ركنت سيّارتها لأنّها حتما ستعود إليها، ستعود إليه. لكنّ سيّارتنا نحن لم ولن تعود. عبثا انتظرنا. كلّ دقيقة تمرّ تخبرنا بأن لا جدوى من الانتظار. لن نعود كما أتينا، هكذا كُتبت الأقدار. كان علينا البحث عن وسيلة نقل أخرى وفجأة بدت مكّة بعيدة، بعيدة وعزيزة...

* * *

خطأ فادح

من جدّة إلى مكّة، مارس 2010

كلّما مرّت الدّقائق شعرنا، أبي وعمّتي وأنا، بفداحة الخطأ الّذي ارتكبناه في حقّ أنفسنا. ما كان أغنانا عن التورّط في هكذا مغامرة. ها أنّنا حُرمنا حتّى من صلاة المغرب في الحرم بعد أن فرّطنا في صلاتَي الظُّهر والعصر، والصّلاة الواحدة في الحرم المكّيّ بمائة ألف صلاة! ثمّ ماذا سنأكل عندما يحين وقت الإفطار؟ لم نجد بدًّا من اختيار مطعم يبيع الوجبات السّريعة إياها. سنمتِّع أنفسنا بالدّجاج المقليّ المالح.

«هل تريدين بيبسي؟» طبعا لتكتمل صورة «الحلم الأمريكيّ».

«لا شكرا، أنا أقاطع البضائع الصهيونيّة» هكذا حدّثتُ نفسي مشجِّعة ولم أكن قد تذوّقت البيبسي في حياتي. بعد ساعة أو أكثر حين سأذوق الدّجاج، سأندم كثيرا على عنتريّاتي وعلى البيبسي الّتي فرّطتُ فيها بسبب نضالي الأخرق، فالدّجاج جافّ جدّا ومالح. ثمّ بعدها بسنة واحدة لن أجد أيّ حرج في أن أدفع من جيبي ستّة وخمسين يورو لكي أقضي يوما ممتعا في مدينة ديزناي بباريس. ما أسرع ما «بعت» القضيّة ما أن لوّح لي ميكي مرحبا وفيه حلم طفولة تربّت على مجلّته الأسبوعيّة...

كلّ هذا الحديث والاستطراد والخرفانُ الضّالّة ما تزال متجمّعة أمام حديقة المسجد تنتظر انفراج الأزمة. حصل ذلك بالفعل حين رأينا قائد

الرّحلة يشير بيده إلى ساحة قريبة توقّفت فيها سيّارات بيضاء جميلة وكان بإمكاننا استئجارها بثمن مرتفع نسبيّا لكنّه معقول، فركوبها مُتعة والسّفر فيها راحة، ولا مجال لمقارنتها بالبطّة الدميمة التي مشت على أربع ثم خذلتنا ولم تعد. ثمّ هل كان لنا من خيار؟ هذه السّيّارات الأنيقة هي أملنا الوحيد في العودة. فانطلقنا نجري صوبها فرحين كفرح الرّجل الّذي أضاع ناقته في الصّحراء ثمّ وجدها.

كانت السّيّارة واقفة بانتظارنا واستقبلنا السّائق بحفاوة واتّفقنا على الثّمن، ثمّ هيّا لننطلق... كانت سعادتنا تفوق كلّ وصف وتذكّرنا قول ربِّنا: «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم». قد عوّضنا الله خيرا ألف مرّة من السّيّارة الكبيرة الّتي جئنا فيها. كل شيء بدا مثاليّا وشاعريّا حتّى جاءت ... وأفسدت كل شيء!

نحن لسنا في كوكب زمرُّدة وحتما لسنا في الجنّة. في عالم مثاليّ كنّا سنغلق أبواب السّيّارة وننطلق في رحلة مريحة وجميلة كأنّها الحلم. لكن في العالم الحقيقيّ وفي الكبد الّذي خُلِق فيه الإنسان ليظلّ يكابد الحياة فتطيب له حينا وتعبس في وجهه حينا كي لا يركن إليها، في هذا العالم البائس ليس هناك نهايات سعيدة. سوف تأتي عجوز شمطاء في لحظة ما وتفسد كلّ شيء. كدنا ننطلق حين سمعنا صوتها وهي تجري وتصيح دعوني أركب معكم، دعوني أركب معكم وأقاسمكم كلفة الأجرة. لم أكد أصدّق ما أرى وأسمع، فهرعت إلى أبي أتوسّله بعينيّ لكنّه لم يكن ينظر إليّ ولا شعر بوقوفي على حافّة الهاوية، فوافق غير آبه ولا مكترث. مكانه على أيّة حال بجانب السّائق في

المقعد الأماميّ الوثير. ثمّ إنّ هذه المرأة لم تترك لنا الخيار أصلا. فقد فرضت علينا وجودها فرضا، كإسرائيل، حين اندفعت كالمجنونة فأشرعت باب السّيّارة وركبت! ماذا؟ هل ستسحقنا اللّعينة طوال الطّريق فقط لكي توفّر بعض الملاليم؟ لديها ما يكفيها من المال لأداء العُمرة مرّتين في العام لكنّها لا تملك ما يكفيها لتترك النّاس يسافرون متفسّحين في المجالس في سلام؟ أمّا عمّتي فكعادتها لا تكاد تنزعج أو تغضب من شيء، وأمّا أبي فلم يدُر بخلده أنّني أتعذّب، وأمّا أنا فكان دمي يغلي ويفور. لم تدم سعادتي سوى ثانية واحدة. كنت أحلم بسفر ليليّ مريح تُحتَرَم فيه كرامة الإنسان، فإذا بمساحتي الشخصيّة تُغتصب وحُرّيّتي تُنتهك، وإذا بوجهي يلتصق في النّافذة كأنّني أركب أرذل ميترو خفيف في العاصمة. كانت كل ذرّة في جسدي تصرخ صرخة مدوّية: «لماذا؟ لماذا اغتُصِبت سعادتي وسُرق حلمي؟»

وبما أنّ المصائب لا تأتي فُرادى فقد كان على مصيبتي أن تكون أيضا ثرثارة كأشدّ وأشنع ما تكون الثّرثرة وأن تكون أيضا صيّاحة. فهي لا تتكلّم كما يتكلّم الآدميّون، بل تصيح. كان عليها أن تكون عاملة ناصبة سابقة في المملكة السّعوديّة كي تأتي في سنة 2010 فتصدّع آذاننا بإنجازاتها العظيمة ومعرفتها بخبايا قناة الجزيرة و.. و.. و..

وكان السّائق كريما مؤدّبا خلوقا فصبر عليها صبرا جميلا (محطِّما كلّ الأرقام القياسيّة في رياضة الصّبر على المكاره) حتّى أدرك لوهلة أنه ليس بصدد التّعامل مع كائن بشريّ بل مع روبوت آليّ يتكلّم دون كلل ولا ملل ولا حياء. حتّى النَّفَسُ تلتقطه بسرعة لتعود إلى كلامها الّذي لا أوّل له ولا

آخر. هنا أحسست بأنّ المسكين بدأ يشعر بالحرج والضّيق. ثم هو لم يكن مهتمًّا بالحديث مع عجوز ستينية تركت نصف أنوثتها في الشّارع قبل أن تركب. فصَوْتُها وحركاتها وطريقة كلامها كلّها فجّة ذكوريّة تكاد تكون وقحة. هناك شابّة على الضّفّة الأخرى تبدو جميلة رصينة وغامضة.

تحوّلت نظراته إليّ من خلال مرآة السّيّارة وهو يسألني ذاك السؤال المستَهلَك عن خُضرة تونسَ المزعومة... فأجابه أبي وحدّثه عن تاريخ تونس وقال كلاما بدا ليَ اكتشافا. فكأنّني أسمعه للمرة الأولى في حياتي. ثمّ أخذني الفضول حين تذكّرت الرّجل اليمنيّ الّذي أعطاني الشّاي ذات استراحة. فسألت السّائق عن رأيه في اللّهجة التّونسيّة هل تبدو له صعبة ومعقدة؟ وكنت أنتظر أن يقول لا أو يجاملني هونا ما، لكنّه أجاب بصراحة بأنّه لا يكاد يفهم من كلامنا شيئا. فهو يبدو له غير واضح تماما ومن الصّعب جدّا فكّ طلاسمه. فحَزَّ في نفسي ذلك ورثيت لحال ثقافتي التّونسيّة الجميلة بلهجتها الموسيقيّة المُحَبّبة وأكلها الحارّ اللّذيذ الّذي لا يكاد يُدانيه أيّ أكل من مطابخ العالم على رحابتها وتنوّعها. وقلت في نفسي: «ثقافتنا وعاداتنا جميلة وأصيلة لكنّنا لا نحسن التّسويق!

بعد هنيهة سمعت الرّجل يدعو أبي لزيارة تونس، وإذ به يتنهّد قائلا أنّه لا يملك المال الكافي لمثل هذا التّرف الجميل فزوجته أصلحها الله قد أثقلت كاهله بطلباتها التي لا تنتهي. هنا رماني بنظرة ضاحكة معلنا رغبته في الزّواج من تونسيّة. ثم سأل وبراءة الذّئب في عينيه: «هل المرأة التّونسيّة جيّدة؟» فأجبته بوجه مغلق وملامح صارمة: «بل هي صعبة المراس.» وعجبت

لجرأته في السّؤال بينما أبي يجلس إلى جواره، أليس هذا نوعا من المعاكسة؟ ربّما هي الفكرة السّائدة عن الرّجل التّونسيّ اللّيّن المتفتّح، في مقابل الرّجل الشّرقيّ الشّديد الحازم.. ربّما... وعلى كلّ، فقد خاب ظنّي فيه وكنت أحسبه حييًّا كريما فإذا به قد مزّق تلك الصّورة النّاصعة بصبيانيّات سمجة وددت لو تركها جانبا. فها هو يشتكي من مصاريف الزّوجة الأولى ثمّ يبحث عن الثّانية. نعم أيّها الثّقيل، المرأة التّونسيّة متطلّبة ومثقّفة وبعيدة الغور وصعبة المنال، فاقنع بما عندك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.

لا أدري إن كانت المرأة التّونسيّة كما وصفتها أم أنّني وصفت المرأة الّتي فيّ أنا. ستثبت لي الأيّام مستقبلا أنّني من أصعب النّساء مراسا وأكثرهنّ شكوى وأبعدهنّ عن الرّفق واللّين.

ربّما تتساءلون أين ذهبت السّيّدة حشريّة (استعرت هذا اللّقب من سلسلة هند صبري الهزليّة «عايزة أتجوّز»)، تلك الّتي حشرت أنفها ووجهها ثمّ كلّ بدنها في السّيّارة. يبدو أنّ معجزة ما حصلت، فقد تعبت هي نفسها من نفسها فسكتت أخيرا ثمّ.. ثمّ سقطت في بئر نوم عميقة فارتاحت وأراحت. وكذلك فعلت عمّتي ثمّ أبي. حتّى وجدتُ أنّني الوحيدة المستيقظة في السّيّارة، أنا والسّائق. وقد سكت هو الآخر. وأصبح بإمكاني أخيرا الإصغاء إلى الصّمت الجميل المهيب والتّمتّع بالمناظر الطّبيعيّة وهي تمرّ مرّ السّحاب والسّيّارة تطوي بنا الطّريق طيّا نحو بغيتنا الّتي من أجلها تركنا الأهل والأرض والدّيار، وغايتنا الّتي في سبيلها وصلنا اللّيل بالنّهار.

أخشى أنّني بالغت في حديثي عن السّائق، وما أريد أن أقسو عليه أو

أظلمه. كان في المُجمل مؤدّبا لطيفا خلوقا إلى أبعد الحُدود... ربّما أراد فقط تقصير المسافة ببعض الثّرثرة الفارغة واللّهو البريء. وكما يقول المثل التّونسيّ: «كفّ وكعبة حلوى» أي ضربه على وجهه ثمّ ناوله الحلوى. هكذا فعلتُ أنا مع السّائق المسكين. كدت أشتمه ثم التمست له عذرا.

أذّن المغرب ونحن في الطّريق ومن السّنّة التّعجيل بالإفطار للصّائم. وهذا ما فعله أبي بعد أن استأذن السّائق، فسمح له بكلّ رحابة صدر أن يأكل في السّيّارة. هنا فتح أبي الصّندوق العجيب فانبعثت منه رائحة الدّجاج المقليّ والبطاطا وملأَت أنوفَنا جميعا. وشرع أبي يأكل في شراهة وتلذُّذ. ثمّ دعا السّائقَ ليشاركه الطّعام لكنّ الرّجل اعتذر في لباقة متمنّيا له الصّحّة والعافية. هنا التفت أبي إلينا ودعانا أنا وعمّتي لنحذو حذوه. وكان في أقصى درجات الرّاحة والسّلام النّفسيّ وكأنّه يأكل في مطبخه بتونس. فعجبت للرّجال كيف لا يزعجهم شيء ولا يكادون يخجلون أو يتحرّجون من شيء. فإذا جاعوا أكلوا وإذا عطشوا شربوا وإذا دعتهم الحاجة البشريّة قضوها على حافّة الطّريق ولا مشكلة. يا لحياتهم، ما أسهلها وأبسطها!

كنت طبعا أفضّل صوم عشر ساعات إضافّية على أن أمدّ يديّ إلى طعام وكذلك عمّتي لم ترغب في الأكل. بإمكاننا الانتظار قليلا بل كثيرا، فلسنا جائعات. نحن نساء قويّات وصبورات. أمّا الرّجال فهم طوال حياتهم أطفال قليلو الصّبر والحيلة. فعلا، نحن أقوى وأكثر صلابة وأشدّ جَلَدًا وإلّا ما عهد الله إلينا بمعجزات الحمل والولادة والرّضاعة والتربية.

وصلنا أخيرا إلى مكّة ورأينا أضواء الحرم تتلألأ من بعيد وتشرق بأنوارها

على العالم بأسره. لكننا لم نهتد إلى نزلنا وما وجدنا إليه سبيلا. حتّى السّائق لم يكن يعرف شيئا عن نزل اسمه «هوازن» ولا عن شارع اسمه «غزّة». يبدو أنّه لم يكن متعوّدا على مثل هذه الرّحلات أو أنّ الحكومة السّعوديّة سريعة الهدم سريعة البناء فلا يكاد حجر يبقى مكانه حول الحرم. والنّزل هناك لا تعمّر كثيرا وقد تذهب هباءا منثورا بين عشيّة وضحاها نتيجة حركة التّجديد والتّوسيع المتواصلة. ربّما كان هذا السّبب الّذي جعل أغلب النّاس في مكّة لا يعرفون شيئا عن نزلنا الصّغير الحقير.

فحرنا ماذا نصنع وكيف نتصرّف وقد أسدل اللّيل علينا ستاره. حتّى أبي لم يجد الطّريق، لكنّني وجدته، وبعين صقر لمحت نزلنا ينتصب واقفا في شارع مواز للشّارع الّذي كنّا نسير فيه. وصحت صيحة من ظفر بكنز: وجدته! فما كان من السّائق إلا أن التفّ بنا في أوّل تقاطع، وسرعان ما وصلنا إلى تلك البناية العالية المكتوب عليها «هوازن». هنا كانت فرحتي مضاعفة: ففرحة بانفراج الأزمة وفرحة بأنّي كنت السّببَ في ذلك، وزد عليها فرحتَيْ الصّائم.

أخيرا استعدت جزءا من كرامتي التي أضعتها في متاهات الحرم ذات ضياع. وكأنّ لسان حالي يقول لأصحابي: «من عاد بكم إلى البيت اليوم يا أطفال؟» وللمرة الثّانية بدت لي غرفتنا الصّغيرة في النّزل الحقير كأنّها قطعة من الجنّة. تنهّدنا جميعا في ارتياح: ما أجمل العود إلى الدّيار.. ما أجمل أن يكون الحرم المكّيّ في الجوار.. الحمد لله كثيرا!

* * *

شريط الصّور

مكّة مارس 2010

كما أخبرتكم سابقا فإنّي توقّفت عن كتابة المذكّرات في الدّفتر منذ أيّامي الأولى في مكّة. سأضطرّ من هنا فصاعدا إلى التّعويل فقط على ذاكرتي المهترئة. ندمت بعض الشّيء على تقصيري وكسلي في الكتابة، ولو علمت حينها أنّ هذه القصاصات الصّغيرة ستتحوّل إلى حلقات في مدوّنة ثمّ إلى كتاب لما تهاونتُ في تسجيل كلّ شاردة وواردة لكنّي حينها كنت أحسب نفسي أدوّن لنفسي فقط وألبس عباءة ابن بطّوطة في زمن الطّائرات والصّواريخ ...

لكن في نفس الوقت، ألّا تكون هناك مذكّرات يعني أن تكون هناك ذكريات. وعادة ما يعلق في الذّاكرة هو لبّ التّجربة وما تحمله لك من أجمل اللّحظات وأسوئها، هو تلك الصور الخاطفة والمشاهد العابرة التي تومض كالبرق في عتمة الذّاكرة.

أتذكّر مثلا النّسيم الخفيف حين يحرّك ستائر غرفتنا ووقوفَنا بجانب النّافذة كي نتفرّج على الحياة وحركة النّاس التي لا تفتر أبدا، إطلالة من الطّابق الثّاني عشر تصيبنا بشيء يشبه الدُّوَار ثم نغلق النّافذة ونبتسم ونخلُدُ إلى سُرُرِنا تسبقنا أحلامُ اليقظة اللّذيذة كأن... كأن نكون في مكّة!

أتذكّر عمّتي حين لا تريد العودة إلى النّزل ليلا فهي في حماس وفرح طفوليّ، نفسها توّاقة إلى اكتشاف كلّ جديد كأنّها طفلة صغيرة في يوم عيد.

كانت تتوقّف عند كلّ محلّ نجده في طريقنا وتقلّب سلعَه بعينين تلتمعان فضولا وشغفا. هي لا تريد العودة مباشرة إلى غرفة النّزل، ليست مستعجلة. بل تريد أن تنال نصيبها كاملا غير منقوص من الإثارة، تريد أن تملأ عينيها بهذه المباهج الملوّنة من حليّ ولعب واكسسوارات وسلع برّاقة لا تجذب إليها إلّا طفلا أو امرأة. ثمّ ألا توفِّرُ عليها هذه المعروضات عناء البحث عن هدايا لأحفادها؟ كلّ شيء موجود أمام ناظريها وما عليها إلّا أن تختار ولا تحتار.

أُغمض عيني وأفتحها فأرى البنات الهنديّات الصّغيرات بشعورهنّ السّوداء الزّيتونيّة ونظراتهنّ الّتي يختلط فيها الخجل بالفضول وهنّ يلعبن في الطّابق العلويّ للحرم المواجه تماما للكعبة. أذكر أنّي أخذت لهنّ صورا دون استئذان عدا ابتسامتي العريضة. نعم لقد عُرضت عليّ البشريّة كلّها في بساط مزركش، ومازلتُ ذاهلة أمام نمنماتها وفسيفسائها الّتي تجعل اللّبيب حائرا وقلبَه ساجدًا أمام عظمة الخالق. ومن هذه الفسيفساء أنتقي صورة أخرى ألتقطها بعدستي لامرأة تركيّة أو لعلّها كرديّة تلبس لباسا شعبيّا عجيبا غريبا ما رأيتُ مثله أبدا يتكوّن بالأساس من سروال فضفاض عريض جدّا. وكانت عظيمة الخلقة ملامحها صارمة ووجهها متجهّم. فحمدت الله أن تمكّنتُ من تصويرها دون أن تتفطّن إليّ فتشدّني من أذني.

أراني أمشي وحدي في المسجد، أجرّ قدميّ وأتأمّل النّاس في ذهابهم وإيابهم بين الصّفا والمروة. كنت أبحث عمّن يأخذ لي صورة، فقد شعرت بأنّ ساعاتي في هذا المكان الخالد باتت معدودة ولا بدّ من شيء يثبت بأنّي مررت من هنا. كنت أتشوّف إلى وجه طلق يفهم حاجتي دون أن أقولها،

ففهمتني تلك الطّفلة السّوريّة الجميلة ذات الوجه المنير والبسمة الملائكيّة. فهمتني بذكاء البنات حين يكبرن بسرعة ويقمن بأعمال تفوق سنّهنّ بمراحل. فهمتني تلك اللّبيبة وعرضت عليّ خدماتها مسرورة. وكانت تحسن التّصوير فالتقطت لي صورة ما كنت لألتقط أحسن منها. فشكرا لك أيّتها الباسمة الجميلة، شكرا على مرورك اللّطيف في حياتي!

أرى ذاك الولد الشّقيّ كثير الحركة، وقد كنّا في صلاتنا إذ حاول الهرب والتّفلّت من قبضة أمّه الّتي عبثا حاولت إقناعه بالبقاء بجانبها، إلّا أنّه نجح في الهروب. وكان سيبتعد عن ناظريها لولا حزم النّساء اللّائي كنّ يُصلّين وفي نفس الوقت يُمسكن بثياب الولد الصّغير ويمرّرنه إلى بعضهنّ البعض حتّى وصل إلى أمّه. لا أجرُأ حتّى على التّفكير فيما كان سيحدث لهذا الطّفل المسكين لو تفلّت منّا وهرب إلى الضّياع والمجهول.. لكنّ بثينة العيسى، الكاتبة الكويتيّة الجميلة ستأخذ هذه الفكرة وتصنع منها رواية من أجمل وأقسى ما قرأت هي «خرائط التيه»، خاصة أنّي حال قراءتها كنت قد صرت أُمًّا وجرّبتُ معنى الأمومة. ما أكثر الأطفال في العُمرة، تراهم من كلّ الأشكال والألوان والأعمار، حتّى الرُّضَّع وحديثو الولادة، وهم يصدرون الكثير من الأصوات وشيئا يشبه الضّجيج أحيانا بينما نحن قائمون نصلّي ونبحث عن خشوع وسكينة أضعناها في بيوتنا وجئنا نبحث عنها في أقدس بقاع الأرض وأشرف مواضع للسّجود. لكنّنا في الأخير نتعوّدُ على الصّغار، على صخبهم وبكائهم وعويلهم و... إفسادهم لصلاتنا! تتحسّن الأمور بشكل ملحوظ حين يقرأ الإمام، فصوته من القوّة بمكان حتّى أنّه يغطّي على كلّ صوت آخر غيره، بلغ ما بلغ من الحدّة والقوّة.

أُغمض عينيّ فأرى الإمام قائما يصلّي والنّاس مُقبلون على صلاتهم في صمت وخشوع كأنّ على رؤوسهم الطّير. وإذ به يقف عند آية يتهدّج صوته فيها ويتكسّر ثم لم نعد نسمع إلّا نشيجا... إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.. كان يجاهد كي يتماسك ويكمل القراءة.. وكيف لا ينخلع القلب عند ذكر الموت في هذا المقام الجليل ... كان يجاهد ليواصل التّلاوة أمام مليونَي مصلّ وملايين المتابعين وراء شاشاتهم.. لحظات من الصّمت الرّهيب والتّأثّر المهيب لا أنساها.. ولا أنسى صلاتنا على الموتى بعد كلّ صلاة سواء في مكّة أو في المدينة، رجال ونساء نغبطهم ونتمنّى لأنفسنا حسن الخاتمة..

أغمض عينيّ وأرى ركضي في المدرّجات والسّلالم وأنا أهرول من طابق إلى طابق في رحلة بحث عنكبوتيّة عن الطّبيب عساه يخفّف عن عمّتي أوجاع ساقها. كم سألنا وكم بحثنا وكم صعدنا وكم نزلنا حتّى عثرنا عليه.. الطّبيب التّونسيّ الّذي لا يبدو عليه أنّه مهتمّ برسالته الّتي فقدت شيئا من قداستها في هذا المكان. فهو هنا فقط إذا ما احتاجه أحد، تماما كالعجلة الاحتياطيّة الّتي نضعها في صندوق السّيّارة في حال ما... وبصفة عامّة لا يسافر النّاس هذا السّفر إلّا وهم قادرون عليه. فهو هنا من باب الاحتياط. وهو يمارس عملا روتينيّا ربّما. عموما فقد استقبلَنا بوجه متجهّم شابته مسحة من اللّامبالاة ونظرات تكاد تقول لنا دعوني بعد رحلة الألف سُلّم الّتي أوصلتنا أخيرا إليه.. فماذا كانت النّتيجة؟ تمخّض الجبل فأخرج فأرا، حبّات من الأسبرين وإلى الجحيم.. عجبت لأمره ولقلّة فحصه لعمّتي المسكينة.. كان موقفا طريفا ومربكا في آن. كلّ هذا من أجل هذا؟

ما أجمل الحياة في هذه البقاع، كنّا سعداء تمضي بنا الأيّام في أجواء روحانيّة عالية واكتشافات، فإمّا صلاة في الحرم وإمّا مناسك عُمرة وإمّا تلاوة قرآن، وإمّا متابعة لبرامج دينيّة في قناة «إقرأ» الفضائيّة كما في الأيّام الخوالي.. استرجعت حلاوة الإيمان وشغفي بهذه البرامج في أيّام التزامي الأولى حين اكتشفت ديني لأوّل مرّة، حين اكتشفت آيات الحجاب وفهمت مغزاه، حين اكتشفت ما في الجنّة من نعيم، حين عرفت ما قدّمه الرّسول ﷺ من تضحيات في سيرته الزّكيّة الخالدة... ما أجمل البدايات.. البدايات دائما جميلة لكنّ العبرة بالخواتيم..

عمّتي كانت فرحة مستبشرة وهي تتابع معي برنامج الفتوى وتنصِت بشغف إلى أسئلة المتّصلين وأجوبة الشّيخ الحكيم ثمّ تلتفت إليّ وتهتف بي: «أسمعتِ إلى جواب الشّيخ؟ تمنّيت لو أتابع مثل هذه البرامج طول الوقت في بيتي لكنّ أحفادي لا يسمحون لي بذلك.» تقولها وتضحك. طبعا أحفادها الصّغار يفضّلون متابعة الصّور المتحرّكة أو حتّى المسلسلات على هذه البرامج «الجامدة» الّتي لا نرى فيها إلّا وجه شيخ وقور.

تعوّدنا على مكّة وألفناها كما ألفنا المدينة. تعوّدنا على غرفتنا الصّغيرة وتصالحنا مع ضيقها. كما تعوّدَت هي علينا وتصالحت مع أمتعتنا الكثيرة المزعجة. تعوّدنا حتّى على أعوان الاستقبال، وما عادت تزعجنا وجوهُهم الكالحة وأنيابهم المكشِّرة عن ابتسامات صفراء فاقع لونها لا تسرّ النّاظرين. وقد اكتشفت في سفري هذا أنّ للإنسان قدرة عجيبة غريبة على التّعوّد وقابليّةً كبيرة للتّأقلم. وهنا أستحضر الحديث النّبويّ الشّريف: «من أصبح منكم آمنا...»

التّأقلم سهل والتّعوّد يسير إذا ما توفّرت هذه الشّروط الثّلاثة: الأمن والصّحّة والغذاء. ما دام السّقف مرفوعا والصّحّة موفورة والغذاء موجودا فأنت في نعيم يحسدك عليه الملايين. وهذه هي المقوّمات الّتي تجعل من البشر إنسانا متفرّغا لممارسة إنسانيّته، أي القيام بأيّ نشاط فكريّ أو بدنيّ له قيمة وهدف. وهذا ترف لا يتأتّى لمن جاع بطنه أو خاف على نفسه أو ابتُلِيَ في بدنه.. والله نسأل العفو والعافية وأن يديم علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

تعوّدنا على الغرفة وألفنا النّزل والطّريق إلى الحرم. تلك الأشغال الّتي لا تنتهي.. كنتُ أتعجّب كلّ يوم من سرعة تقدّمها، ولا أذكر أنّ أشغال البناء والتّشييد تسير على هذا النّسق في بلدي.. حتّى أنّي طمعت أن أكون شاهدة على انتهائها.. ربّما سأكون لا زلت هنا في مكّة حين ينتهي العمّال ويعودون إلى بيوتهم.. أو هكذا تمنّيت. أردت أن أشهد نهاية الحضيرة وكنس الغبار وآلاف طيور الحمام تحلّق فوق رأسي. قد وقعت في حبّ مكّة ولا أعرف كيف السّبيل إلى تركها بعد أن ألِفتها وأحبَبتها ومشيت في طرقاتها وتنشّقت نسائمها وصلّيت في مسجدها وسجدت في محرابها.. كيف لي أن أترك مدينة الرّسول ﷺ الأولى ومسقط رأسه وأحبّ بقاع الأرض إلى قلبه؟ لكن ما العمل وبطاقة تعريفي تشير إلى أنّني تونسيّة ولست سعوديّة؟ ما العمل وما دفعناه مقابل الرّحلة لا يكفينا سوى خمسة عشر يوما لا تزيد ولا تنقص؟ بل تنقص يومين، ففي اليوم الأوّل ركبنا ليلا وفي اليوم الآخر انطلقنا منذ الصّباح الباكر...

الخبر الجيّد، لأنّ كلّ شيء يبدو لنا سيّئا فيه جانب من الخير، هو أنّني سأعود قريبا إلى آية ابنة أختي الّتي اشتقت إليها كأشدّ ما يشتاق حبيب إلى

حبيبه. وكيف لا يأخذني الشّوق إليها ومعها تذوّقتُ لأوّل مرّة حلاوة أن أكون خالة لطفلة صغيرة جميلة!

* * *

ليلة ليلاء

مكّة، 31 مارس 2010

هذه ليلتنا الأخيرة في مكّة. يوم أربعاء لا أنساه. كنت أتجوّل في الحرم وأجرّ قدميّ بمرارة من يعرف أنّها ربّما المرّة الأخيرة. ربّما لن أعود إلى هنا أبدا، أو سأعود لكن بعد وقت طويل... طويل جدًّا. وها أنا ذي أكتب هذه السّطور في مارس 2023 وقد مرّت ثلاث عشرة سنة ولم أعد بعدُ.. فحُقّ لي أن أحزن وحُقّ لي أن آسف وأنا أعيش لحظاتي الأخيرة في رحاب الكعبة الشّريفة. لكن حين تكون مسافرا فحتّى الحزن يصبح ترفا، وما حدث معي في المدينة حدث معي في مكّة. فلم يتسنّ لي أن أودّع الحرم أو آخذ وقتي وحقّي كاملا غير منقوص في الوقوف على الأطلال.. فترة الحداد مضبوطة ومحكومة بضرورات الحياة الّتي لا تتوقّف أبدا، تماما كما لا يتوقّف الأكل والشّرب وحتّى الضّحك في دار العزاء. دقّت ساعة الرّحيل.. وهناك دائما الكثير من الأشياء الّتي عليّ فعلها.. أم حسبت أنّ بإمكاني السّفر والتّمتّع بالعُمرة دون عواقب وخيمة ومسؤوليّات جسيمة كحزم الأمتعة وتوضيب الحقائب ولملمة شتات ألوان وأشكال من الأغراض الّتي يجب دفعها دفعا ورفسها رفسا كي تدخل في آخر حقيبة مفتوحة على العديد من الاحتمالات؟ هل حسبت أنّي سأنجو بفعلتي بعد كلّ هذا التّسوّق وكلّ تلك المشتريات وسأتمتّع بسفر خفيف لطيف وقد اشترينا نصف ما في الأسواق من ثياب ومتاع؟ ستمرّ السّنوات وأتعلّم من زوجي المستقبليّ فنّ أن تسافر بحقيبة

واحدة خفيفة تضعها في الرّفّ العلويّ لمقعدك في الطّائرة، فلا انتظار ولا اعتذار...

إذا كنت مثلي فإنّك ستتصارع مع الحقائب والأمتعة ثم ستتذكّر أنّك نسيت شيئا ما في الدّرج وستتساءل في هلع هل اشتريت هدايا لفلانة وأولادها الخمسة. ثمّ ستفشل في إغلاق الحقيبة الزّرقاء ثمّ تعدّ نقودك ثمّ تفقد صوابك وتعود إلى الحقيبة إيّاها فتضغط عليها بكلّ قوّتك أن هيّا أغلقي فمك. ثمّ تعود فتستجمع تركيزك كي تتثبّت لآخر مرة أنّك لم تنس شيئا من أغراضك في الغرفة، وتتساءل في جزع هل سيكون علينا دفع تكلفة الزّيادة في الميزان؟!

(وأنا أكتب هذه السّطور راودتني خاطرة وهي أنّ من أعظم نعم الله علينا أنّنا نرحل من هذه الدّنيا دون متاع ولا حقائب، وحسبُنا صحيفة أعمالنا وكفى بها حملا ثقيلا).

هذه ليلتنا الأخيرة في مكّة، ليلتنا الأخيرة في النّزل. حسن تقريبا، فطائرتنا تنطلق في الثّامنة صباحا وعلينا إخلاء غرفنا قبل منتصف اللّيل. أي أنّنا سنقضي اللّيلة ما بين قاعة استقبال النّزل والحافلة والمطار. هكذا طردونا بكلّ بساطة وركلونا مع أمتعتنا الثّقيلة المزعجة خارج الغرف. لكنّنا جثمنا على صدورهم الضّيّقة وتصدّرنا في قاعة الاستقبال. وكان مصيرنا كمصير سندرلّا الّتي يجب عليها ترك القصر قبل منتصف اللّيل وإلا افتُضِح أمرها وتحوّل فستانها الحريريّ إلى أسمال بالية. شعرت بالبؤس وبتعاسة التّنظيم.. كما لاحظت غياب الكثيرين ممّن لا يحفلون بالقواعد والتّعليمات. فبعض

الأذكياء والمجرّبين جلسوا في غرفهم إلى آخر لحظة. لكنّنا سارعنا بالامتثال للأوامر العليا ولم يدُر بخلدنا أنّ الكثير من رفاقنا سيضربون بها عرض الحائط. هكذا هي براءة الطّفولة الأوّلى والسّفر الأوّل، ربما لو أتيحت لي الفرصة فسأكسر القواعد وأرمي بها من الشّبّاك.

لا نوم اللّيلة إذن ولا فراش.. حسنٌ، الفكرة تبدو لي طريفة ومثيرة. فأنا كائن ليليّ لا يزعجه السّهر إلى ساعة متأخّرة من اللّيل. وإن حُرِمت النّوم فلا بأس، ما دمتُ في ريعان شبابي وعنفوان قوتي وبإمكاني أن أصبر وأتنازل عن حقّي في الرّاحة بعد التّعب والنّوم بعد السّهر. لكن ماذا عن هؤلاء النّساء المسنّات والعجائز المريضات؟ يبدو أن السّهرة ستكون ممتعة والعرض رائعا...

انقسم النّاس إلى مجموعات ثلاث: فمنهم الفائزون الّذين أحسنوا استغلال فرصة وجودهم بجوار الحرم حتّى آخر قطرة، فتمتعوا بالطواف حتى اللّحظة الأخيرة. ومنهم الفطنون الّذين مكثوا في راحة غرفهم ودفء أسرّتِهم ينتظرون الحافلة. ومنهم المغفّلون الّذين اتّبعوا التّعليمات بحذافيرها، فسارعوا بالنّزول إلى باحة النّزل. وكنتُ للأسف أنتمي إلى المجموعة الأخيرة اضطرارا لا اختيارا، أمّا أبي فأنا أعوّل على ذكاء القارئ ليخمّن أين يجده... وليبحث جيّدا ويدقّق النّظر، فالحرم مكتظّ والخلق كثير!

جلستُ إذن في قاعة الاستقبال الضيّقة ككلّ شيء في هذا النّزل النّحيل الطّويل، جلسنا كلّنا وجلستْ معنا أمتعتنا التّونسيّة. مالكم كيف تَعْجَبون؟ نعم، هناك أمتعة تونسيّة. ذلك أنّنا معاشر التّونسيّين لا نضيّع وقتنا ولا ندع

فرصة للشّراء تمرّ دون أن نغتنمها، فالهدايا للعائلة مسألة حتميّة كالموت لا جدال فيها. ولذا أرجو أن تتخيّلوا تماما ما أعنيه حين أقول «أمتعة تونسيّة» فأنا أقصد تلك الأطنان من الحقائب والأمتعة المتكدِّسة الجاثمة كَفِيَلَةٍ نائمة على البلاط. حتّى أنّ أعوان الاستقبال كانوا يجاهدون كي يُخفوا ابتسامات السُّخرية ويضحكوا في صمت من هذه الكارثة المضحكة المبكية المتمدِّدة بكلّ ثقلها على المساحة المحدودة المتوفّرة. علما أنّ هناك فوجا آخر من المعتمرين قد يأتي في أيّ لحظة.. لكنّ الحافلة اللّعينة، حافلتُنا، قد حرنت كناقة عجوز فهي لا تريد أن تأتي وتريح البلاد والعباد من ثقلنا.

كنتُ إذن أجلس مع عمّتي على أريكة وبجانبي عروس حديثة الزّواج مع زوجها وحماتها. فعجبتُ من سفري كيف ينتهي كما بدأ. فمازلت أذكر بوضوح هذه الشّابّة الجميلة الّتي وقفت أمامي في الحافلة التي كانت تقلّنا من الطّائرة إلى مطار الحجيج بالمدينة. بدت لي كأنّها رؤيا جميلة بثوبها الأبيض الملائكي الّذي تزيّنه عقدة في شكل فراشة بالظّهر وبشرودها وهي تتأمّل المكان عبر زجاج النّافذة وتؤمّل رؤية مكّة والمدينة، وتحلم مثلي بمباهج المغامرة وما تخفيه لنا من مفاجآت. هذه الشّابّة تجلس الآن في آخر الرّحلة بجواري وتثرثر معي للمرّة الأولى تقريبا. غاب زوجها دقائق ثم عاد بأكياس من المرطّبات والحلويّات وجلسنا نأكل معا. هناك تمتّعت بحلاوة المذاق ومتعة المشاركة، وأن نكون إخوانا متآلفين وأصدقاء مستأنسين لبرهة من الزّمن ثمّ يمضي كلّ في طريقه. هذه اللّفتة البسيطة كأن يناولك أحدهم قطعة من الحلويات لم تتوقّعها، أشعرتني بالدفء العائليّ، فكأنّنا أفراد أسرة واحدة.

ثمّ ما لبثتُ أن عدت إلى دفتري أبتغي تدارك ما فاتني تسجيله في الأيّام الماضية. لكن عبثا حاولت فلم يسعفني التّركيز. وأحسست كأنّني تلميذ يقوم بعمل منزليّ وسط حفلة عيد ميلاد. كانت الأجواء احتفاليّة أكثر من اللّازم، والوقت وقت هزل. والكتابة حتّى لو كانت مجرّد خواطر تُعَدُّ ضربا من الجِدِّ لا يقوى عليه أمثالي في مثل هذه الظّروف. ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السّوء، لو كنت أعلم أنّ هذه الخربشات ستصبح حلم كتاب لما تَهاونتُ في التّدوين يوما واحدا، لكن قدّر الله وما شاء فعل. عموما، فقد أعجبت الفكرة جارتي العروس أيّما إعجاب وتحمّسَتْ لها وشجّعتني على المضيّ قُدما فيها...

رغم صعوبة الوداع إلّا أنّي كنتُ فرحة مستبشرة بالعودة إلى بلادي وعائلتي وقطعة السّكّر الّتي اسمها آية. وإن نسيتُ فلا أنسى نوبات الضّحك الهستيريّ الّتي غرقت فيها كما لم أفعل طوال سفرنا هذا، بل كما لم أفعل في حياتي إلّا نادرا جدّا. وأنا من النّوع الّذي يُضحك ولا يَضحك إلّا يسيرا. لكنّ القواعد من النّساء الجالسات في الجهة المقابلة لي قدّمن عرضا مجانيّا ترفيهيّا لم أحلم بمثله ولم أتوقّعه أبدا.

ففي البداية كُنّ ينتظرن مثلنا في صبر جميل وأمل في الله كبير، تعلو وجوههنّ الابتسامات وتنطلق من أفواههنّ الضّحكات والنّكات. وكُنّ يتجاذبن أطراف الحديث ويشاركننا النّقاشات بحماس ونشاط. ثم ما لبث أن دبّ في أوصالهنّ السَّأَم والفتور، فلم يعد ثمّة فرح ولا حبور. وكلّما تأخّر الوقت وغابت الحافلة انقلبت سحناتهنّ فإذا هي عابسة، واسودّت نظراتهنّ

فإذا هي قاسية كالحجارة أو أشدّ قسوة. وعجبتُ لهذا التّغيير الطّارئ عليهنّ. عجبت لهذه الوجوه المكفهرّة والأفواه الموصدة والقسمات المتيبّسة. فما عُدن يتكلّمن إلّا قليلا ولا يبتسمن إلّا نادرا ثمّ ما لبثن أن سكتن تماما. كان صمتا جنائزيًّا كثيفا، صمتا عنيدا غاضبا كبحر هائج من اللّعنات المكتومة. وكما يتبدّل الطّقس فجأة، فتَسْوَدُّ السّماء بعد زُرقة، وتعوي الرّياح بعد سكون، وتهطل الأمطار بعد جفاف، وتندلع العاصفة كحريق لم يقرأ له أحد حسابا، كذلك تبدّلت وجوه الجدّات الطّيّبات فاربدّت وصارت أقرب إلى وجوه السّاحرات الشّرّيرات في أفلام الكرتون. كانت كلّ ثانية تمرّ تترك أثرها على وجوهٍ أنهَكَتْها الآلام الجسديّة والنّفسيّة ومَسَخَها الحُنق والمقت لكلّ هؤلاء الكسالى عديمي المسؤوليّة الّذين لم ينجزوا عملهم ولم يُحضروا الحافلة في الموعد المحدّد. كُنّ كقنابلَ موقوتةٍ قادرة على ارتكاب أفظع الجرائم فقط من أجل حافلة أو سرير. كُنّ ينظرن لنا في الضّفّة المقابلة من القاعة ومن العمر، يتطاير الشّرر من عيونهنّ أمام مرأى الفتيات الجميلات وهنّ في عنفوان القوّة والشّباب لا يبدو عليهنّ تعب ولا كلل، وكرِهْنَنَا بكلّ ما أوتين من مرض ووهن. هناك اكتشفتُ مرّة أخرى كم أنّ المرأة العجوز إذا تراكم عليها المرض والتّعب صارت كائنا قاسيا بلا رحمة. حتّى عمّتي الهيّنة اللّيّنة تحوّلت إلى كائن غضوب مخيف يومَ ضياعنا في مكّة.

أخيرا طفح الكيل بإحداهنّ وامتلأ كأس الصّبر عن آخره ففاض وفاضت روحها معه. وانطلقت تصيح بحسرة ولوعة: «آه يا ربّي كم ندمت على مجيئي إلى هذا المكان! يا ويلتى ليتني لم أضع ساقي في الطّائرة ولم أركب.

ما الّذي حملني على هذا السّفر؟ ما كان أغناني عن القدوم. يا لها من غلطة شنيعة لا دواء لها».

هنا لم أتمالك نفسي فانفجرت في نوبة ضحك هستيري طفوليّ، ضحكت من كلّ قلبي كما لم أضحك منذ زمن بعيد، منذ أن كبرت وأضعت براءتي في الطّريق.. ليس سخرية ولا استهزاء ولا قلّة رحمة أو احترام، لكنّ العرض المسرحيَّ الدّراميّ الّذي أمامي أفحمني ودغدغني إلى حدّ البكاء. أيصل الأمر بأحدهم أن يندم على مجيئه لزيارة بيت الله الحرام؟ نعم يا خالتي ما كان أغناك عن هكذا مغامرة. أما سمعتِ أنّ الله لا يكلّف نفسا إلّا وسعها؟ ما كان أجدركِ أن يسعك بيتك وتُهدي عمرتك هذه إلى من هو أصغر منك سنًّا وأوفرَ صحّة وأقلَّ حيلة، وهم كثير صدّقيني. ما كان أغناكِ عن عُمرة تاسعة أو عاشرة تضمّينها إلى القائمة كأنّك تجمعين الطّوابع البريديّة أو القطع النّقديّة النّادرة. أمّا وقد حصل «المكروه» واقترفتِ ذنب المجيء إلى «هذا المكان» فليتك تسلّحت بالصّبر الجميل على ما أصابك. فلا مُعين على نوائب الدّهر سواه. وعموما، عظّم الله أجركِ، فلعلّ الله اطّلع علينا جميعا فجعل لك من الأجر ما يفوق أجورنا بمراحل هي التّعب والوهن والشَّيبة. وكلّما ازدادت المشقّة ازداد الأجر... تمنّيتُ أن أقول لها هذا الكلام، لكنّني مازلتّ متمسِّكة بالحياة... ثمّ فقد أحسست بحركة ما، يبدو أنّ الحافلة أخيرا هنا.

هذا ما أعلَنه الرّجل التّونسيّ حين دخل علينا بقامته الفارعة ووجهه الأسمر المتهلّل وشعره الّذي وخطه الشيب على صغر سنّه، وقميصه الأحمر في لون علم بلادي. جاء مبشِّرا فرَمَوه بالطّوب والحجارة. ما إن أتمّ جملته

حتى انطلقت العجوزتان كالمسعورَتَين تصبّان عليه جام غضبهما ومنتهى عجزهما، فواحدة تسبّه وأخرى تشتمه وتزأر عليه كلبؤة هائجة. وكيف لا وقد أمضتا السّاعة الأخيرة تنتظران في صمت مخيف كبشَ الفداء الّذي سيطلّ برأسه كي تدقّا عظمه وتقطّعا لحمه وتسلخا جلده. وهذا ما حصل بالكمال والتّمام مع الرّجل الشّجاع المقدام. بل إن إحديهما كشفت عن ساقها إلى ما فوق الرُّكبة لتُرِيَه آثار عمليّة جراحيّة خضعت لها مؤخّرا ولا زالت تعاني ألمها وتبعاتها. فما دريتُ هل أَعْجَب من جنون المرأتين وعنفهما الشّديد أم من هذا الفارس النّبيل كيف صبر هذا الصّبر الجميل؟ فما رأينا منه إلّا الشّهامة في أفضل صورها والسّماحةَ في أرقى معانيها، فهو هيّن ليّن وفيه خصلتان يحبّهما الله: الرّفق والأناة.

أرى الجنون والانحدار في مواجهة العقل والاصطبار. الآن وقد بلغت أشُدّي وبلغت أربعين سنة أرى أن ما فعله الرّجل ليس أمرا خارقا ولا مستغرَبا إنّما هو عين العقل لمن أراد أن يحافظ على كرامته، ولمن علم أنّه ليس بصدد التّعامل مع إنسان مكتمل العقل بل مع حالة من الجنون والضُّعف البشريّ الّذي يشبه ثورة طفلِ العامَين حين يريد شيئا ما، فيرغي ويزبد ويبرق ويرعد. والحلُّ الوحيد هو مسايرة مشاعره واحتواؤها ومصاحبتها لتهدئته، وليس أن تثور مثله أو تصيح فتحذو حذوه. هذه ليست بطولة، هذه حكمة الخبير المُجرِّب. ولا أحسبها المرّة الأولى الّتي يجد فيها نفسه في موقف كهذا، فما أكثر العجائز وناقصات العقل والدّين في رحلات الحجّ والعُمرة. لا بدّ أنّ صاحبنا متعوّد على «حوادث الشّغل» من هذا النّوع بالذّات وقد

ألف أنماطا وأصنافا من الطّبائع والشّخصيّات الّتي تنسى ذات ألم وتعب لماذا جاءت أصلا إلى «هذا المكان».

وجاء أبي متأخِّرا ضاحكا مستبشرا ببيعه الّذي بايعه وبفوزه بجوار الكعبة والطّواف بها إلى آخر رمق... كان يعلم تماما أنّ الحافلة ستأتي متأخّرة، وإن أتت فسيستغرق ركوب النّاس وتحميل البضائع ربّما ساعة والحرم قريب وقدماه تحملانه إلينا في لمح البصر. هنيئا لك يا أبي، ليتني كنتُ معك فأفوزَ فوزا عظيما.

ركبنا الحافلة أخيرا وانطلقنا إلى مطار جدّة، لكن عند وصولنا أخبرونا بأنّ طائرتنا لن تخرج في الثّامنة صباحا كما تمّ إعلانه مسبقا، بل في منتصف النّهار. نزل علينا الخبر كالصّاعقة، أما يكفينا طردنا من حجراتنا وليلة ليلاء أمضيناها بلا نوم ولا راحة لتضيفوا إلى كعكتكم الرّديئة حبّة الكرز المسمومة هذه؟ طبعا لمن لم يجرّب السّفر يبدو الأمر عجيبا، لكنّني الآن أعي جيّدا أنّها أمور عاديّة تحدث كلّ يوم، لا سيّما في رحلات الحجّ والعُمرة.. والله المستعان.

* * *

في المطار

من جدّة إلى تونس، 01 أفريل 2010

كان مطار جدّة أفضل بكثير من مطار الحجيج بالمدينة المنوّرة لكنّه لم يكن مبالغا فيه أيضا، فلا بذخ ولا زخارف. وقد تمّ تفتيشنا بدقّة وعناية هذه المرّة، فلا محاباة هنا. وانتصبت امرأة ضخمة الجسم طويلة القامة تطالعنا بنظرات صارمة ووجه قد أحكمت أقفاله وقامت بمهمّتها بكلّ جدّ وعزم. ففتّشتنا نحن النّساء الواحدةَ تلو الأخرى. وبدا لي أنّ صرامتها الشّديدة وحرصها المبالغ في لعب دور الجنديّة الحازمة من السُّخف بمكان، بينما نحن مجرّد معتمرات وعجائز في معظمنا. وفي المجمل، فلا أظنّ أنّنا نشبه كثيرا مهرّبي الذّهب والألماس. لكن لا تثريب عليها، فهذا عملها وهذه شخصيّتها الّتي عليها أن تتقّمصها قبل أن تعود لبيتها وأولادِها فتخلع عنها زيّ الحزم وتلبس ثوب الأنوثة كإنسانة طبيعيّة تمارس حياتها اليوميّة، زوجةً وأمًّا وربّةَ بيت. ثمّ هي بعملها هذا تصون كرامة النّساء فلا تقع عليهنّ يد رجل بتعلّة التّفتيش وحفظ والأمن والأمان.

لكن ما لي ولها؟ مازال أمامنا أربع ساعات من الانتظار حتّى يحين موعد الطّائرة الّتي لا تأتي أبدا في موعدها. حتى أروقة ال free shop بمنتجاتها المغرية وألوانها البرّاقة لن تقدر على إلهائنا كلَّ هذا الوقت فقد تسوَّقنا حتّى التُّخمة. وقد فهمنا أنّ أيّامنا المعدودات في جنّة الدّنيا قد انتهت. وأنّنا لم نعد

من المرحَّبين بهم ههنا، فصرنا نصبو إلى العودة لأهلنا وديارنا لنعانقَ الصّغار ونصافحَ الكبار ونسردَ الحكايا ونوزِّعَ الهدايا...

تناولت قطعا من الشكولاتة وأنا ألفّ المكان بنظرات متعبة. كان الوهن والسّأم باديا على جميع الوجوه تقريبا. ثمّ لاحظت وجود مكان مخصّص للصّلاة ينقسم إلى جزئين، فمصلّى للنّساء وآخر للرّجال. فقلت هذه فرصتي، إذ لم يتسنّ لي الصّلاة وكنّا في سفر. فانطلقتُ إلى دورة المياه لا ألوي على شيء، وظننتُ أنّ الأمر سهل. لكنّني حين هممت بالعودة إلى رفاقي تشابهت عليّ الأماكن وتكاثرت تفاصيل الطّريق وتشابكت، فسلالم ومنحرَفات ومصعد آليّ. ثمّ إنّ التّعب والسُّهاد جعلا على عينيّ غشاوة فلم أكد أبصر الطّريق. وفجأة برز لي شبح الضّياع وطفق يلوّح بيده ويكشّر عن أنيابه ويهزأ بي: ويحك أيّتها المغفّلة أفي مثل هذا المطار الحقير يتوه النّاس؟ مالك ترتجفين كشاة تائهة ابتعدت عن القطيع؟

وخشيت على نفسي، لكنّني فرحت لأنّني في ضياعي هذه المرّةَ لوحدي، فلن أحمل أثقالا مع أثقالي، ولست مسؤولة ولا مؤاخذَة إلّا على نفسي الّتي بين جنبيّ. وبعد دقائق من الخوف والرّجاء وأنا أغالب جزعي لأبحث عن رفيق أو وجه صديق، وجدت أخيرا صفّ مجموعتي التّونسيّة لا سيّما المتأخّرين منهم. ففرحت فرحة الرّجل الّذي تاهت عنه ناقته في الصّحراء وذهبت بزاده ومتاعه ورجائه في الحياة، حتّى إذا فقد كلّ أمل في النّجاة وأيقن بأنّه هالك لا محالة انتشله الله من براثن اليأس والخوف وأعاد له ناقتَه ومعها

ابتسامتُه. فهكذا كانت فرحتي حين وجدت رفاقي. «وآمنهم من خوف»، قد خبرتُ ربّي نعمة الأمن بعد الخوف وما أعظمها من نعمة.

أدّيتُ صلاة الفجر أخيرا ثم تمدّدتُ على الأرض أنا وعمّتي، وكان البساط متّسخا جدّا ومليئا بالفضلات والأكياس الفارغة والعلب البلاستيكيّة، وكلّها شاهد تعيس على مرور أفواج المسافرين من هنا. ليس من السّهل ولا المريحِ النّوم في مكان كهذا، لكنّ التّعب والإرهاق غطّيا على كلّ شيء حتّى علَى طبع الأميرة المدلّلة الّتي بداخلي، فما أن بدأت تحتجّ حتّى أسكتُّها: «أنسيتِ أنّنا لم ننم في اللّيلة الماضية وما ظفرنا إلّا ببضع دقائق من الهلوسات في الحافلة؟ إذن فدعيني لنوْمي حتى على البلاط.» لكنّني لم أستطع الاستسلام تماما إلى النّوم، إذ كنتُ أخشى أن تفوتني الطّائرة. فما إن أغفو حتى أفيق مذعورة وأتفقّد السّاعة فأطمئنّ وأغمض عينيّ من جديد. وبين غفوة وأخرى كنت أرى تلك المرأة الآسيويّة وهي تنظّف هذا الشّاطئ الهائل من الفضلات والفوضى البشريّة، الشّاطئ الّذي رست عليه سفينتي المتهالكة مقطّعةَ الشراع منقسمةَ السّارية.

أخيرا، ورغم الحرص والنّوم المتقطّع، فقد وصلنا متأخِّرين وكنّا آخر النّاس مرورا إلى قاعة المغادرة. مازلتُ أذكر الصّفّ الطّويل لتسجيل البضائع. هناك رأيت صويحباتي العجائز المتعَبات يفقدن صوابهنّ مرّة أخرى. كانت الأجواء مشحونة بالتّوتّر والأعصاب مشدودة عن آخرها. أيّ حركة خاطئة، أيّ تجاوز غير «قانونيّ»، أيّ تلامس بالأكتاف، كان كفيلا

بأن تحدث الكارثة، كان الشّرارة الأولى لفوضى الحديد والنّار الّتي تلتهم كلّ شيء في طريقها.

كانت بجانبنا مجموعة أخرى صاخبة. عرفتُ من لهجتهم أنّهم مصريّون وكانوا في أغلبهم رجالا. رأيتهم يحتدمون في النقاش ويتصايحون بأصوات عالية ويتشاجرون ولم أفهم سبب الخلاف. لم أفهم مبرّر العنف والتّوتّر المتجمّع فوق رؤوسهم كسحابة غضب داكنة من الدّخان الأسود. وتألّمت من هذا المشهد، فلم يبق إلّا أن يتصارعوا بالأيدي ويتضاربوا بالنّعال. لِمَ كلّ هذا العنف والفوضى يا معاشر المسلمين؟ يا أفواج المعتمرين!

لكنّ خبرا سارّا جعلنا نبتسم جميعا وانتَشلنا من حالة التّرقّب والتّوجّس الّتي كنّا فيها. ذاك أنّ الموظّفين بالمطار قالوا لنا: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»، فليس ثمّة قيود على الأمتعة والحقائب ولا رسومات إضافيّة على الوزن الزّائد. وهكذا احتفظ أبي بريالاته الّتي ادّخرها لمثل هذا الموقف العظيم وهذه اللّحظة الحاسمة. وفرحت وقتها، أمّا اليوم فإنّي أتساءل كيف يسمحون لنا بحمولة زائدة في الطّائرة قد تشكّل خطرا علينا؟ لكن ما أدراني؟ أليس أنّ أهل مكّة أدرى بشعابها؟ فكذلك أهلُ المطار أدرى بالطّائرة وبالطّيّار. فللطّائرة قدرة استيعاب هائلة لا محالة. وإن كنّا سندفع رسومات من أجل الوزن الزّائد فهذا يعني أنّ الوزن الزّائد إنّما هو كذلك بالنّسبة لثمن التّذكرة. أمّا بالنّسبة لطاقة استيعاب الطّائرة فليس زائدا بالمرّة. والخبر السّارّ الثّاني التّابع للأوّل هو أنّ هذه المرونة في قبول أمتعتنا برمّتها جعلتنا نُنهي الإجراءات بسرعة ونمرّ إلى بوّابة المغادرة دون حساب ولا سابقة عذاب.

أخيرا ها نحن جالسون في الطّائرة تتقاذفنا أحاسيس متباينة، ففرحٌ بالعودة إلى الدّيار ومصافحة الأهل والأحباب وحسرةٌ على مغامرتنا الّتي انتهت وأرضٍ تركناها هي أحبّ وأقدس بقاع الأرض.. لكن هذه هي الحياة في دورتها «وتلك الأيّام نداولها بين النّاس». وكما قال الشّافعيّ: «ولا حزن يدوم ولا سرور ولا بؤس عليك ولا رخاء».

لاحظت أنّ طائرة العودة أصغر حجما من الطّائرة الضّخمة الّتي أقلّتنا إلى المدينة قبل أسبوعين. وبدا لي السّفر هذه المرّة ألطف وأريح وأخفّ بكثير. وبين الفطور اللّذيذ والنّوم الهانئ، مرّ الوقت بسرعة البرق ولم أشعر إلّا وقد وصلنا إلى مطار تونس قرطاج الدّوليّ.

تسارعت دقّات قلبي وأنا أتجاوز البوّابة الأخيرة حيث تتّجه جميع الأنظار وتشرئبّ الأعناق وتتلهّف القلوب لرؤية الغائبين بعد طول انتظار. رأيت أمّي وأخواتي يسرعن نحوي، لكن سبقتهنّ خالتي وهي تجري، فكانت الأولى في استقبالي. واحتضنتني وعيناها تذرفان، واعتصرتني كأنّها تريد أن تمرّغ وجهها في أقرب كائن حديث عهد بالمسجد النّبويّ علّها تستجلب البركة والرّزق والفأل الحسن، كأن تذهب للعُمرة هي نفسها في المرّة القادمة. ودخلنا في دوّامة من القبل والأحضان والتّهاني والتّساؤلات والدّموع والضّحكات. فكانت عودة صاخبة حضر فيها الصّغار والكبار من جميع الأعمار. وسارعت باختطاف آية من يدي أمّها وحملتها بين ذراعيّ وعانقتها غير مصدّقة أنّي رأيتها من جديد. فطالما تذكّرتها في سفري القصير هذا واشتقت إليها. وكانت بنت سبع شهور، قطعة من البهجة والعسل نتذوّقها على مهل...

قفا نبك

تونس، أفريل 2010

عدنا إلى الدّيار وانتهى كلُّ شيء. تلاشى سحر المغامرة وانقشعت إثارة السّفر واختفت أشواق الوصول. قد وصلنا بحمد الله وعانقنا الأهل والأحباب، ثمّ تفرّق الجمع وعلقنا نحن في الذّكريات. مضت الأيّام ثقيلة حزينة متشابهة. وكنتُ أكثر ما أجد من الوجد والاشتياق ساعة الغروب. فما إن تغرب الشّمس وأسمع الأذان حتّى يبلغ بي الحنين مداه فأذرف الدّموع الحرّى وكأنّني كنت في الجنّة ثمّ طُردت منها. واشتقت إلى المدينة، فكأنّني تركت فيها قطعة من فؤادي ثم مضيت بقلب جريح نازف أُجابِه رتابة الأيّام... لقد قمت مبكّرا عن طاولة الإفطار، قمت ولا زلت جائعة إلى كسرة من الغذاء الرّوحيّ أتبلّغ بها في حياتي المجدبة. ما زلت في حاجة إلى زيارة رسول الله، ما زلت فقيرة إلى ركعة في الحرم المكّيّ، ما زلت عطشى إلى نظرة للكعبة الشّريفة، لطواف حولها، لسعي بين الصّفا والمروة. ما زلت في حاجة إلى نفحات إيمانيّة وشحنات تكفيني أيّاما وأسابيع. تمنّيت لو فعلت أشياء كثيرة، تمنّيت لو اغتنمت عمرتي بشكل أفضل...

تمضي الأيّام وها أنا ذي أعود إلى عملي الجديد ومكتبي التعيس. ها أنا ذي أمشي على استحياء في شوارع وطني الّذي لم أعد أرغب في العيش فيه. فلا هو منّي ولا أنا منه، هو غريب عنّي وأنا غريبة عنه، قد لفظني ونبذني وناجزني الحرب مذ دخلت في الإسلام دخول من اكتشف دينه لأوّل مرّة، وصارت

الصّلاة تهمة والحجاب جريمة. وعشنا سبع سنين عجاف ثمّ أطعمنا الله من جوع وآمننا من خوف. وأكرمني ربّي فكتب لي الفوز بوظيفة في الوزارة بحجابي ودون وسائط ولا أكتاف غير دعوة والد حريص في جوف اللّيل..

أخذني الحنين واكتشفت أنّ وطني هو ذاك الّذي خلّفته ورائي، حيث كلّ شيء يعينك ويقوّيك على طاعة الله، حيث تقف الحياة عند «حيّ على الصّلاة»، فلا بيع ولا شراء ولا تجارة إلّا مع الله. وطني هو ذاك الّذي ترتدي فيه النّساء لباس الحشمة والحياء فيضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ويدنين عليهنّ من جلابيبهنّ امتثالا لأمر الله. الآن في طريق العمل أرى نساء بلادي وأتساءل ودمي يفور مالهنّ كاسيات عاريات مائلات مميلات؟ ألا يعرفن الله؟ ألا يخشينه؟ مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا؟ أهذه تركة فرنسا وتربية بورقيبة وميراث بن علي؟ كلّ شيء صار يشعرني بالغثيان، تلك الشّوارع المتّسخة والسّيقان العارية وصرير الميترو الخفيف حين يمرّ بجانبي، كلّ شيء يذكّرني بأنّي سقطت من جنّة الدّنيا إلى حضيضها، إلى الجهل والتّخلّف والقذارة المادّيّة والمعنويّة. كرهت وطني، كرهت أرضه وسماءه وشمسه وهواءه. بات كلّ شيء بلا معنى، كلّ شيء في حياتي السّابقة صار تافها إلى حدّ البكاء. أتذكّر صولاتي وجولاتي على موقع الفايسبوك وأوقاتي الضّائعة في نقاشات لا تنتهي على منتدى ما، يا لخيبة المسعى وضياع الأعمار. وضاقت عليّ الأرض بما رحبت حتّى ما عدت أبصر منها إلّا بقعة واحدة مضيئة مشرقة: تلك هي مدينة رسول الله! سحرتني وأبهرتني حتى أودعتها قلبي وانطلقت بصدر مشرّع على الشّوق والجراح. وسألت نفسي في جزع

وأنا أبكي بحرقة: متى سأعود؟ كم سأنتظر من الوقت حتّى أكحّل عينيّ بمسجد رسول الله؟ كيف السّبيل إلى تجاوز ما حدث والمضيّ قدما في الحياة؟ كيف أصبر على ما فقدت؟ كيف أنسى؟ كنت في حداد!

وتقاطرت على قلبي الذّكريات وهاجمتني الصّور واللّحظات السّاحرات تترا.. أتذكّر دموع الفرح حين حطّت الطّائرة في المدينة المنوّرة وانبهاري بالرّجال الصّناديد ذوي السّترات الزّرقاء وسواعد الإخاء.. تذكّرت لطف سكّان المدينة ودماثة أخلاقهم وابتسامات التّجّار.. تذكّرت المعارك أمام المصعد الكهربائيّ وزيارة مسجد رسول الله ﷺ للمرّة الأولى وتلك الفسيفساء البشريّة المتحرّكة في كلّ الاتّجاهات.. تذكّرت هطول المطر بقوّة في ساحة المسجد.. تذكّرت الزّمن الّذي يتوقف عند «الله أكبر»، المغازات المغلقة واللُّعَبَ الّتي تتأرجح في الهواء...

تذكّرت مكّة.. الكعبة، تلك الملكة المتوّجة على قلوب الملايين، صلاة الجمعة.. رأيتُني ضائعة تائهة خائفة، أنا في أحسن حالاتي ثمّ في أسوئها. أرى صديقي الصّغير، خطيبي ذي الخمس سنوات، أرى جدّة، ضياع الوقت... دوّامة من المشاعر، طيران الحمام عاليا وهو يخفق بجناحيه، أطفال فقراء بائسون يبيعون أشياء رخيصة، نظرات سوداء وأطراف ناقصة، بناية جديدة انشقّت عنها الأرض في لحظات.. أتذكّر دعواتي وابتهالاتي.. ودعوة مخصوصة ما زلت أردّدها: اللّهمّ أعدني إلى جوار رسول الله!

* * *

اللّقطة الأخيرة

كنت أحسب أنّي انتهيت، أنّي اعتصرت ذكرياتي حتّى آخر قطرة وقلت كلّ ما عندي ثمّ مضيت. وإذا بالوجوه الصّغيرة تداهمني والنّظرات الحزينة تحاصرني فقلت في نفسي: كيف أغمض عينيّ عن مهانتهم؟ كيف أصمّ أذنيّ عن همساتهم؟ كيف أنهي الكتاب وأسدل السّتار ولمّا أعطهم حقّهم. ذاكرتي تضجّ بصورهم وقلبي ينزف لمعاناتهم، وإن نسيت فلا أنسى براءتهم الجريحة وطفولتهم المسروقة. هل عرفتموهم؟ أولئك هم الصّغار اللّطفاء، هم الأولاد البؤساء الّذين قابلتهم في زيارة ما حول مدينة رسول الله ﷺ. كانوا يبيعون قلائد وحليّا بجواهر بيضاء مزيّفة. ترى المعاناة مرتسمة على وجوههم والغيوم تلقي بظلالها القاتمة فوق رؤوسهم. فكأنّهم أطفال فلسطينيّون قُتل آباؤهم. نظراتهم حزينة، أصواتهم حزينة، عيونهم حزينة وفيها اعتذار، كأنّهم يعتذرون على وجودهم أصلا. وكنّا في المقابل جالسين في الحافلة الصّغيرة بجلودنا البيضاء الناعمة وأجسادنا الطرية المكتنزة وجيوبنا الملآنة المنتفخة ونظراتنا المستعلية المستهترة، قد أكملنا جولتنا السّياحيّة وبقينا في الحافلة مرفّهين ننتظر التحاق البقيّة. هناك تلقّف الأطفال الفرصة وحاولوا عرض بضاعتهم طلبا للرّزق، لكنّ قاربهم الصّغير ارتطم بصخرة جلمود فصار ألواحا ودسر في موج متلاطم من اللّا مبالاة الإنسانيّة، لكنّ اندفاعهم اصطدم بقلوب قاسية فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، لكنّ سيقانهم السّمراء النّحيفة توقّفت أمام جدار فولاذيّ كذاك الّذي بنته إسرائيل كي تضحك

على العالم وتحبس شعبا كاملا... فعوض أن نستقبلهم بلطف وحنان أو على الأقلّ نصرفهم بكياسة واحترام، رأيت مرافقاتي يستقبلنهم بوجوه كالحة وملامح عابسة ونظرات من حديد تقطر تقزّزا وازدراء. ورأيتهنّ يتأفّفن من وجودهم جهارا نهارا وينفضنهم كما ينفضن الغبار عن حياتهم المثاليّة ويعاملنهم كأنّهم حشرات بشريّة. ثمّ سمعت إحداهنّ تقول بامتعاض: "يا لهؤلاء المتشرّدين الثّقلاء والمتسوّلين بلا حياء!» فعجبت لهذه المرأة وضيئة الوجه جميلة القسمات الّتي رأيتها تصلّي وتبتهل وتبتسم وما علمت عنها إلّا خيرا كيف تحوّلت إلى هذا الكائن المتكبّر المتحجّر؟ وأنّى لهذه القلوب القاسية أن يقبلها الله؟ ألم يعاتب رسولَه ﷺ في سورة تُتلى حتّى قيام السّاعة؟ «عبس وتولّى أن جاءه الأعمى»... ما لنا كيف نحتقر الأطفال؟ ما لنا كيف نزدري الفقراء؟ متى سنحترم الصّغار ونعاملهم كما نعامل الكبار؟ ما ضرّك يا سيّدتي لو قبلتِ من هذه اليد الصّغيرة قلادة أو أهديت لها قليلا من الكثير الّذي استخلفك الله فيه لينظر كيف تعملين؟ وكيف بنا إذا اطّلع علينا الله في موقفنا هذا ثمّ قال اذهبوا واعتمروا فلن أغفر لكم؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أحسبتم أنّ الدّين صلاة وصوم وزكاة واستكثار من الحجّ والعُمرة؟ أم أنّ الدّين عبادات ومعاملات وأنّ أحاسنكم أخلاقا أقربكم منّي مجلسا كما قال سّيدي رسول الله ﷺ؟

مرّة أخرى تأكّدتُ أنّ النّساء اللّاتي هنّ عنوان الرّحمة والحنان واللّطف ما هنّ إلّا كائنات قاسيات متشبّثات بمتاع الدّنيا وزينتها، ناقصات عقل ودين إلّا من رحم ربّي.. فلم تعطف واحدة منهنّ على الأطفال الصّغار ولم تغر على

طفولتهنّ المسروقة ولم تهتمّ لمعرفة قصصهم وما الّذي أخرجهم من مقاعد الدّراسة وألقى بهم في مجاهل الصّحراء يتصيّدون قوافل السّيّاح ويتعرّضون للصّدّ والإيذاء.

وما أذكر أنّ أحدا عطف عليهم من المجموعة إلّا أبي، فهشّ في وجوههم وبشّ. وكان دائما ما يعطف على أمثالهم من الصّغار. وكنّا في نزهاتنا العائليّة حين نخرج بالسّيّارة نضرب في أرض بلادنا الخضراء ترويحا عن الأنفس وتزوُّدا من طاقة الطّبيعة الخلّابة نصادف أطفالا صغارا يقفون على قارعة الطّريق ويبسطون أياديهم الصّغيرة بأرغفة خبز «الطّابونة» المستديرة اللّذيذة، فكنّا نتوقّف ونشتري منهم. وكانت جدّتي رحمها الله ترجو أبي كي يوفّي لهم الأجر شفقة بهم ولم تكن تطلب شيئا لنفسها أبدا، بل إنّ أبي لم يعد يشتري لها شيئا. فكلّ ثوب جديد ما تكاد تلبسه حتّى تنزعه وتكسوه زوجة العامل الّذي يهتمّ بالحديقة في بيتنا... وكان أبي يضحك من رجائها. فهل مثله يوصى على هؤلاء من الأطفال اللّطفاء الأقوياء الّذين يجاهدون كي يعينوا آباءهم ويواصلوا دراستهم؟ أبي الّذي اضطرّته ظروف اليتم وقلّة ذات اليد أن يقطع دراسته قبل أن يبلغ الغاية فيها ثم فتح الله له فتحا مبينا من حيث لا يعلم ولا يحتسب؟

ووالله لا أحكي لكم هذا الكلام إلّا اضطرارا، فهذه هي الحقيقة وهذا ما رأيته بأمّ عيني. وكنت أتمنّى لو أنّ الحقيقة أقلّ قتامة، والقلوب أكثر اتّساعا والنّاس أحسن أخلاقا، لكنّ هذا ما حصل. وأبي لا يُعدّ شهما ولا بطلا، فما فعل إلّا الواجب وما تصرّف إلّا بالفطرة السّليمة الّتي فطر الله النّاس

عليها.. لكنّنا صرنا في زمن يعدّ فيه الرّجل الشريف استثناء والصّادق عملة نادرة، والشّهم أعجوبة مستحدثة. وإنّا لذاهبون إلى زمن يُقال فيه اذهبوا إلى بلاد كذا فإنّ فيها رجلا أمينا ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

آسفة أنا، لأنّني لم أختم قصّتي بنهاية سعيدة. وأنّ آخر رسالة لي في هذه المذكّرات قاتمة تعيسة.. لكن ماذا أصنع وقد حُبِّب إليّ الحديث عن الأبطال المغمورين والضّعفاء والمساكين الّذين لا يجيدون ألاعيب السّياسة وزخرفة الكلام وليس لهم راية ولا لسان؟ أحب أن أقول لكم يا معاشر الحجّاج والمعتمرين ساكني الفنادق من فئة خمس نجوم، المتقلّبين في نعم الله ظاهرة وباطنة، أرجوكم تذكّروا إخوانا لكم في الدّين وفي الإنسانيّة خلّفتهم الحروب وأدماهم الفقر ونهشتهم الابتلاءات وجعلهم الله لنا سخريّا. فهذا عامل نظافة وهذه امرأة تبيع القماش، وهذا ولد يجري وفي يده حليّ وقلائد، فبالله عليكم ارحموهم، عاملوهم كآدميّين. فوالله ما رفع الله بعضنا فوق بعض إلّا لحكمة منه وابتلاء.. ولَلْآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا...

أرض الحرمين الشّريفين الّتي هي حلم كلّ مسلم تعني للكثير أوجاعا واستغلالا وازدراء وذلّا ومهانة.. هي الأرض الّتي اضطرّتهم الظّروف للعيش فيها فما وجدوا فيها قلبا عطوفا ولا يدا ممدودة ولا بابا مفتوحا.. أرض قد تكون هي جنّة المؤمن لكنّها جحيم لمن خلفتهم «الحضارة» في عَدْوِها السّافر نحو هاوية الأخلاق ومزالق الأنانيّة والفردانيّة.

* * *

عودة الرّوح

حين كتبت مذكّرات العمرة لأوّل مرّة كتبتها باللّغة الفرنسيّة، ذاك أنّي كنت طويلة عهد بلغتي الأمّ ولم يكن يخطر ببالي أن أكتب بها. وحين عدتُ من السّفر شرعت في كتابة مذكّراتي ونشرها على مدوّنة لي أسّستُها في أواخر سنة 2009. استأنست بما خطّته يداي من خربشات وحسبت أنّي سأزيد عليها بعض التّفاصيل والإضافات لكنّ حكايتي لن تستغرق أكثر من فصلين أو ثلاثة. فإذا بي أستعذب الذّكريات فأتوسّع وأسترسل في الحكايات وتسجيل كلّ ما علق بذهني من صور وإضاءات. فتتابعت الفصول تترا ثمّ... ثمّ ركب بن علي الطّائرة وقامت قيامة الثّورة التّونسيّة. فتركت مذكّرات العمرة وانشغلت بقضايا بلادي والرّبيع العربيّ وصرت أكتب بلا انقطاع. فكانت سنة 2011 من أغزر سنواتي إنتاجا أو سمّها إن شئت ثرثرة. ووجدت في مدوّنتي متنفَّسا، أبثّ فيها شكواي أو أنقد سياسيّا كذّابا أو ظاهرة اجتماعيّة. وكثيرا ما كتبت عن حياتي اليوميّة وما يجيش في صدري من مشاعر... كتبت عن الصّداقة والحبّ والوحدة والسّفر.. كتبت عن الدّين والهويّة والأخلاق وعن فلسطين وسوريا.. كتبت كلّ هذا بالفرنسيّة... ثمّ حين ذهبت عنّي فورة الحماسة الأولى عدت إلى نفسي بالمراجعة وسئمت من الخوض مع الخائضين واللّغو مع اللّاغين وشعرت بمسؤوليّة الكلمة في واقع مشتعل كذاك الّذي عرفناه في سنوات الثّورة الأولى قبل أن يتمّ وأدها. هناك عدت إلى إكمال فصول العمرة حتّى أكملت واحدا وعشرين فصلا. كتبتُها بشكل متقطّع على مدى عامين كاملين.

ثمّ جاءت الثّورة الثّانية، ثورتي أنا حين بدأت أحنّ إلى لغتي الأمّ، علما أنّ الفرنسيّة أيضا لغتي الأمّ نوعا ما. فأمّي أستاذة فرنسيّة وما وجدت في بيتنا إلّا مكتبة فرنسيّة ورثتها أمّي من معلّميها وأساتذتها الفرنسيّين إبّان الاستقلال. وكانت أمّي مثالا للتّلميذة النّجيبة الحريصة، فكانت تحصد جميع الجوائز في آخر السّنة حيث أنّهم كانوا يسدون جائزة في كلّ مادة على حدة. فأحبّها معلّموها وكانوا يجلبون لها الصّناديق الثّقيلة المعبَّئة بالكتب كي تختار منها ما تشاء لتسلّي به نفسها في أيّام العطلة الصّيفيّة. لكنّ أمي كانت تقرأها جميعها فلم يكن لها وسيلة ترفيه أخرى، ثمّ إنّ لها صبرا جميلا على القراءة. وقد أورثتني أنا وأخواتي حبّ المطالعة وشجّعتنا عليها. وبفضلها كنّا نتمتّع أيضا بمكتبة المعهد الثّانويّ حيث كانت أمّي تدرّس، فنأخذ ما نشاء من الكتب العربية نقضي فيها ساعات ممتعة وكم قرأنا لنجيب محفوظ وجرجي زيدان...

وكنت أكثر أخواتي تعلُّقا بالكتاب وصبرا على المطالعة. فقرأت أغلب الكلاسيكيّات الفرنسية إلّا أنّي أذكر كتابا لم أقو على إكماله رغم أنّي كدت أصل إلى نهايته وهو «الأحمر والأسود». كنت أقرأ ولا أفهم نصف الكلمات وأتكاسل عن البحث عن معناها في المعجم فأتوقّف تارة وأمضي تارة أخرى وأحرص على قراءة مقدّمة الكتاب وتحليله رغم ضيقي بها.. كنت قد بدأت في البحث عن الكمال القاتل. سأكتشف بعدها بسنوات كم هو متعب في الحياة أن تبحث عن المثاليّة..

ونظرا لكثرة مطالعاتي بالعربيّة أيضا فقد كنت من الأوائل فيها. لكنّني

تبعت شعبة الرّياضيّات ثم درست الهندسة لسنوات وانقطعت عن المطالعة وفتنت بقنوات الـ mbc إيّاها وخسرت من عمري أيّاما وشهورا أتابع فيها فتات الثّقافة الأمريكيّة وأوهم نفسي بأنّني إنّما أتعلّم الانجليزيّة... وإنّ نفسي لتذهب حسرات كلّما تذكّرت سنوات الضّياع تلك وساعات عمري المهدرة ما بين إشهار وإشهار وسلسلة كوميديّة فجة وأخرى أكثر فجاجة...

كانت نتيجة هذا كلّه أن حصلت فجوة عميقة بيني وبين العربيّة. حتّى أنّي حين حاولت الكتابة بها في تدوينة لي اسمها «أنا عربيّة» شعرت بنوع من الخوف والرّهبة ومشيت بخطوات مرتبكة كمثل من تعلّم السّياقة وتحصّل على الرّخصة ثمّ لم يمارسها لسنوات. فإذا أعطيته سيارة خاف وتولّى هاربا. وقد يعود لمدرسة التّكوين ليطلب ساعات من الرّسكلة... خفت، لكنّني تشجّعت وحاولت العودة رويدا رويدا بأن أقرأ بالعربيّة مثلا.

وذات يوم ربيعيّ جميل تعرّفت على زوجي، بل حصل الاتّصال الأول عبر رسالة بريدية من قارئ لمدوّنتي.. أي أنّه عرفني من قبل عبر كتاباتي وما سكبته فيها من روحي ونفسي وكلّ ما يدور في رأسي الممتلئة بالأفكار والهواجس..

زوجي وُلد وعاش حياته كلّها في فرنسا لكنّه شجّعني على الكتابة بالعربيّة.. وكنت حينها أطمح لتأليف كتاب بالفرنسيّة لكثرة ما قرأت وكتبت بها.

كان حريصا على دينه وهويّته العربيّة الإسلاميّة وفرّ بها من فرنسا بعد

أن عاش فيها عمره الصّغير كلّه. ورضي بالعيش في تونس مع ما فيها من كوارث ومشاكل ومخلوقات عجيبة.. وصادف تشجيعه هذا هوى متجذّرا في نفسي. فصرت أكتب بالعربيّة ونادرا جدّا بالفرنسيّة. تزامن هذا طبعا مع عودتي إلى المطالعة فقرأت لمحمّد الغزالي وأعجبت كثيرا بأسلوبه في الكتابة وفقهه المستنير وحمله همّ الأمّة وحرصه الشّديد على نفع النّاس والإصلاح في الأرض. ثمّ قرأت كثيرا لتوفيق الحكيم وأُعجبت بأسلوبه السّاخر وحسّ دعابته. وأذكر رواية له اسمها «عودة الروح» جعلتني أغيّر اسم مدوّنتي فأسمّيها به قبل أن أعدل عن ذلك وأعيدها إلى ما كانت عليه.

كما أنّي أنشأت مدوّنات جديدة لكن لم أواظب على الكتابة فيها ولم أعد أجد ما أقوله مذ تزوّجت. لكنّ عودتي للقراءة جعلتني أكتب عمّا أقرأ.

وقد بدأت أوّل ما بدأت بالرّحيق المختوم للمباركافوري. فكأنّني أتعرّف على تاريخ الرّسالة المحمّديّة للمرّة الأولى. وقد قرأت كتبا أخرى في السّيرة غيره، لكنّه بقي الأقرب إلى قلبي. فبه تعرّفت على الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة قبيل بعثة الرّسول ﷺ، وبه عايشت مدى تعبه وصبره وتضحياته الجسام من أجلنا وكذلك الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم. وبه فهمت الكثير من الآيات وتعرّفت على أسباب النزول.

ثم شغُفت بكتب محمّد الغزالي صاحب القلم السّيّال الثّائر والرّيشة الجميلة حتّى لُقِّب بأديب الدعاة. كان داعية إلى الله على بصيرة مدافعا عن دينه وقضايا أمّته. أمضيت معه ساعات من متعة الاكتشاف، فبفضل أسلوبه الرّائع في الكتابة وفكره المستنير وعلمه وفقهه جمعت الحسنيين: متانة اللّغة

وسموّ الغاية. وكانت ثورة صغيرة، فأنا أقرأ بالعربيّة من حيث اللّغة وفي ميادين شتّى من حيث المضمون. فابتعدت عن الرّوايات الفرنسيّة والرّوسيّة والبرازيليّة واكتشفت متعة جديدة، متعة أن تقرأ كتابا فكريّا أو تاريخيّا أو علميّا أو حتى في التّنمية البشريّة الّتي قرأت فيها أوّل ما قرأت عن فنّ التّقليل.

وجاء يوم تعرّفت فيه على الرّافعيّ من خلال صديقة لها قلم غاية في الرّوعة ولغة عربيّة فخمة. وكنت قد صرت أمّا ولم يعد لي كثير هامش من الحرّيّة لأقرأ بالنَّسق المطلوب، لكنّي صابرت واصطبرت حتى أتيت على كتابه الخالد «وحي القلم» وهو من أكثر الكتب التي أحتاج لإعادة قراءتها. فكان له أثر بالغ في تغيّر أسلوبي في الكتابة. وقد كان الرّافعي نفسه يهيّئ الجوّ قبل الشّروع في الكتابة فيرجع إلى كتب التّراث للجاحظ مثلا فيقرأ فيها ويتطبّع بطباعها فيكتب ويجيد ويبدع ويرصف كلاما من لآلئ الحكمة وجواهر الأدب والفكر.

ثمّ تعرّفت على كنز آخر اسمه محمود شاكر. وقد كان معجبا جدّا بالرّافعيّ وعلى اتّصال به، فكأنّه أبوه الرّوحيّ. ومن أجله كتب الرّافعي فصوله الشّهيرة عن الانتحار. فوجدتُ في محمود شاكر نمطا آخر مختلفا أقل تفلسفا. وقرأت له أوّل ما قرأت كتابا لطيفا بعنوان «رسالة في الطّريق إلى ثقافتنا» فأخذني سحر أسلوبه منذ الكلمات الأولى. ذاك أنّه بدأ بالحديث عن نفسه ودوافعه للكتابة بأسلوب بديع فشدّني إليه. وكان تعرّفي عليه حدثا مهمّا في حياتي وصاحبته بعدها في «أباطيل وأسمار» فصار كاتبي المفضّل.

ثمّ جاءت فترة قرأت فيها لعلي الطّنطاوي وصاحبته في مذكّراته الطّويلة

وصبرت عليها رغم ما فيها من تكرار واستطراد، حتّى صرت أسمّيه جدّي وأرى لنفسي أحقّيّة أن أكون حفيدته. فقد أمضيت معه السّاعات الطّوال وهو يحدّثني وأنا أستمع له. بل إنّي قرأت كتابه «من حديث النّفس» مرّتين وأنا فرحة مستبشرة.

واكتشفت أدب السّجون مع أيمن العتوم وأدب الصّوفيّة مع فريد الأنصاري. واكتشفت رضوى عاشور وطنطوريّتها الخالدة ثلاثيّتها الرّائعة. ثم تعرّفت على زوجها مريد الشّاعر الفلسطيني الّذي أمتعني بأجمل ما يمكن قراءته في أدب السّير الذاتيّة والوطن: «رأيت رام الله» و«ولدت هنا ولدت هناك». كما قرأت «سبعون» ميخائيل نعيمة فكانت حدثا جميلا في حياتي وأخذتني بسحر أسلوبها وجمال روح صاحبها ومساره في الحياة حتّى تمنّيت لو مات مسلما. وصار أدب السِّيَر الآثَر إلى نفسي الّتي سئمت من الرّوايات وصارت تبحث عن كتب دينيّة وعلميّة وتاريخيّة...

ثمّ قرأت الماجريات والمسلكيّات لإبراهيم السّكران ورقائق القرآن والطّريق إلى القرآن، فكانت قطعا من المتعة الفكريّة والرّوحيّة الّتي لا أنساها. ومازلت آسف لوأد صاحبها وتجفيف قلمه السّيّال وتغييبه في غياهب الجبّ، جبّ الظّلم والاستبداد..

ولو ذهبت أحصي ما قرأت وما اكتشفت لطال الحديث واستطال وقد أطلت عليكم فلا أزيد. كنت قد فهمت ببساطة أنّ الكاتب لا بدّ أن يكون قارئا نهما وإنسانا شغوفا ومطّلعا. ولمّا كانت القراءة من أحبّ الأعمال إلى قلبي، فقد كانت في نفسها مكافأة وهديّة. وأمّا أن يتطوّر أسلوبي ويتّسع

أفقي وتتحسّن لغتي فهي بركة على بركة. ولم أنقطع تماما عن قراءة الرّوايات، لكنّني صرت أكثر حرصا في انتقائها. وإنّي لأعترف بأنّها المنقذة في أيّام الخمول الفكريّ أو الكسل أو الاكتئاب حتّى والسّأم. ثمّ فيها من الزّاد اللّغويّ والسّحر الفنّيّ والرّقيّ المعنويّ ما يشفع لها إذا أحسنّا الاختيار.

وفي المحصّلة أنا كجدّي علي الطّنطاوي في استطراده، كنت أنوي إخباركم بقصّة تأليف هذا الكتاب الّذي بين أيديكم فإذا بي أخبركم بقصّة رجوعي للعربيّة وما قرأت وما سمعت. ورغم الثّرثرة الطّويلة إلّا أنّني ما رسمت إلّا الخطوط العريضة الّتي شكّلت قلمي. ولو ذهبت أستقصي وأتوسّع في كلّ ما اطّلعت عليه وما كان أثره في نفسي كبيرا لسوّدت صحائف طويلة. لكن، حسب القارئ ما قرأ وإنّي لأشكره على صبره الجميل.

* * *

طرق باب

قد حدّثتكم عن قصّتي مع العربيّة، فما شأن هذا الكتاب الّذي بين أيديكم؟ وكيف كتبته مرّتين: الأولى بالفرنسيّة والثّانية بالعربيّة؟ كنت قد كتبت الفصول بصفة متقطّعة على عامين. ثمّ فكّرت أن أجمعها في كتاب إلكترونيّ وأنشره على الغودريدز. وقد حصل. ثمّ اتّصلت بدار نشر صديقة فأجابني القائم عليها بأنّ داره متخصّصة في الكتب العربيّة. وعرض عليّ ببساطة أن أعيد تأليف كتابي بالعربيّة. هناك أُسقِط في يدي وبدا لي المشروع ضخما هائلا. ولمّا كنت من النّوع الّذي يغلب عليه الكسل ولا يحسن البحث والمبادرة، لم أبذل مجهودا إضافيّا كي أبحث عن دار نشر أخرى أجرّب فيها حظّي.

ثمّ قلت أعطي لنفسي فرصة، فحاولت إعادة كتابة الفصول بالعربيّة. وكتبت فصلين أو ثلاثة ثمّ أرسلتها إلى صديقتي المقرّبة آنذاك. فسكتت عنّي يوما بدا لي دهرا ولم تجبني. وكنت أحسب أنّي أتيت بمجهود جميل في الكتابة فعجبت من صمتها وأنا الّتي منّيت النّفس بسماع ثنائها وإعجابها. فلمّا راسلتها مستفسرة تبيّن لي أنّها سكتت شفقة من أن تصارحني بنقدها. كانت تؤيّد فكرة الكتاب ومضمونه، لكنّ أسلوبي في الكتابة لم يعجبها بل أحسست أنّه أزعجها. حتى أنّي مازلت أذكر طرفا مما قالته وهو أنّي أسرفت في استعمال الجمل الإسميّة. فشعرت بالإحباط المشوب بالغضب. كأنّها قلّلت من احترامي حين سكتت عنّي في وقت كنتُ أتلهّف فيه لسماع رأيها، كأنّ

حياتي معلّقة بحكمها و»مستقبلي الأدبيّ» رهين كلمة تخرج من فمها. وكنت حينها في حال من الهشاشة النّفسية والتّبعيّة الفكريّة مزرية. فالحقُّ ما قالت أنّه حقّ، والباطل ما قالت أنّه باطل. وطالما قسوتُ على نفسي واستصغرتها بالمقارنة مع عظمتها، فهي أشدّ منّي تديّنا والتزاما وهي أكثر عملا واجتهادا وهي متعدّدة المواهب وهي.. وهي... ولم أدر حينها أنّني إنّما كنت أستصغر نفسي كلّما كبّرتها هي وأحتقر مواهبي كلّما قارنتها بها. وكنت أسرف في مدحها والحديث عن خصالها حتّى ضاقت بي أمّي ذرعا مرّة ونهرتني. ثمّ تمرّ الأيّام وتقطع صداقة السّنوات بسبب نقاش دام للحظات. كنت أحسبها أخوّة في الله وسببا كي يظلّنا الله تحت عرشه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه لكنّها آلت إلى سراب. وعشت أقسى أنواع الحداد. وكان عذابي بمقدار المكانة الّتي وضعتها فيها. فكما بالغتُ في تبجيلها والثّقة بها ورفعِها إلى مرتبة الصّديقة الخارقة، فكذلك هويت من شاهق. وكان سقوطا موجعا ومدوّيا تهشمت له نفسي وتكسّرت أضلعي وتعذّبت روحي حتّى ضاقت عليّ الأرض بما رحبت وضاق بي زوجي. وعلمت أنّ فقد عزيز بسبب الموت أهون ألف مرّة من فقده وهو حيّ يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق. وانضممتُ مكرهة إلى جحافل المكتوين بنار الصّداقة المطرودين من جنّتها الكاذبة.

ثم مرّت سنوات وسمعت ياسر الحزيمي في البودكاست الشهير عن العلاقات الّذي كسر جميع الأرقام القياسيّة. فرغم أنّه يدوم ثلاث ساعات، إلا أنّ المشاهدات بلغت عشرات الملايين في وقت وجيز. سمعته يقول ما معناه أنّك كلّما كبّرت النّاس صغّرت نفسك، فأنزل النّاس منازلهم دون

إفراط ولا تفريط. وهذا يذكّرني أيضا بالحديث الشّريف «أحبب حبيبك هونا ما...»، كذلك ازددت يقينا بقيمة الكنز الّذي حباني به الله: زوجي. وقلت واعجبا، هذه أخت حسبتها في الله أخطأتُ في حقّها مرّة أو مرّتين فضاقت بي ذرعا وطردتني من حياتها بكلّ سهولة، فما بال زوجي يصبر على ضعفي وغضبي وثورتي وهيجان هرموناتي كلّ هذا الصّبر الجميل، لو كانت هي مكانه ما أحسبها إلا مطلّقتي. وعرفت أنّ الكاتب الفرنسيّ محق حين قال: «ليس هناك أصدقاء، إنّما هناك لحظات من الصداقة.»

وعموما لا أدري هل كان هو الكسل أو ضعف الإيمان بقدرتي على المضيّ في رحلة الكتابة، أو رأي صديقتي الّذي أحبطني وأربكني وجعلني أصرف النّظر عن المواصلة. لكن في يوم ما، حين أنهيت الحداد ومضيت قدما في حياتي، حين شفيت وأيقنت أنّ ما حصل لي هو عين العطاء وأن الخيرة في ما اختار الله، ثمّ حين اشتدّ عودي بفضل مطالعاتي، عدت إلى مذكّراتي فنفضت عنها تراب الإهمال واستأنفت العمل. لا أدري متى بالتّحديد لكنّي أدري أنّي وصلت.

وكي تكتمل الصّورة فإنّي قد حقّقت حلمي في نشر كتابي الأوّل. فنشرته بالفرنسيّة عن طريق ما حسبته دار نشر، ثمّ تبيّن لي أنّها مؤسّسة خدمات مختصّة في النّشر. جرّبت بعث مسودّتي في موقعهم ذات صدفة وفوجئت بردّهم السّريع والمرحّب بكتابي. دفعت مائتي يورو واخترت بنفسي تصميم الغلاف ونشرت كتابي. كان شعورا عجيبا غريبا أن أدخل على موقع أمازون وأجري بحثا فيخرج لي الكتاب وعليه اسمي. كان أفضل هديّة أقدّمها إلى

أمّي أستاذة الفرنسية وإلى أبي الّذي بفضله ذهبت إلى العمرة. فعاشا معي لحظات الرّحلة بكل تفاصيلها. وتذكّر أبي أخته فاطمة الّتي فقدها.. فقد ماتت عمّتي ورفيقتي في المغامرة بحلوها ومرّها.. ماتت في نوفمبر 2020 بسبب الكورونا، رحلت في ليلتها الثّالثة بالمستشفى ودُفنت قريبا من مقبرة الشّهداء ببنزرت. ماتت شهيدة بإذن الله، فالمطعون شهيد وهي مطعونة. وكعادتها لم تُقلق راحة أحد، فلم يقم لها عزاء بل إنّ حليها الّذي كانت تلبسه اختفى بسرقة سارق أو بما لا يعلمه إلّا الله، كأنّها لآخر لحظة في حياتها مستمرّة في البذل والعطاء...

نشرت كتابي في أكتوبر 2022 بعد عشر سنوات من كتابته.. والآن أطمع في مغامرة أخرى بالعربيّة.. ربّما لصديقتي خولة حمدي فضل عليّ في هذا المضمار، أليس أنّها سبقتني في الكتابة والتّأليف وصارت رواياتها أشهر من نار على علم؟ أليس بفضل روايتها الأولى «في قلبي أنثى عبرية» الّتي دأبت على نشر فصولها على منتدى قد عُدت إلى القراءة بالعربيّة؟ لقد مهّدت الطّريق وفتحت الأبواب وقالت هيت لك. بفضل نجاحها وبفضل صديقات لي وأخوات يتابعن خربشاتي على الموقع الأزرق تشجّعت وتجرّأت على تحقيق الحلم بأن قصّتي لن تنتهي بوفاتي. لأنّني سأترك شيئا آخر عدى ولديّ ومكتبتي لأورثه للناس... لأنّ كتابي هذا يقول بأنّي قد مررت من هنا كما قال محمّد أبو الغيط رحمه الله في كتابه «أنا قادم أيّها الضّوء» وهو يجيب عن سؤال: لماذا أكتب؟ الكتابة جعلته ينقش اسمه على صفحة الزمن ويصير مرضه قوة وضعفه عزما وقصته جديرة بأن تُحكى/ تُروى.

لم أفلح يوما في اختلاق القصص أو تأليف الرّوايات. وعقلي أكثر كسلا من أن يُجهد نفسه في التّفكير وتخيّل الأحداث وتصوّر الشخصيّات. كلّ ما أحسن فعله هو الكلام عن نفسي ومحيطي وما يعتلج في صدري من مشاعر وخلجات. حتّى أنّ السّير الذّاتيّة صارت لوني الأدبيّ المفضّل لأنّها تجمع بين متعة الحكاية والتّشويق وبين القيمة التّاريخيّة، فهذه قصص حدثت بالفعل وكثيرا ما يفوق الواقع الخيال.. فكم تأثّرت بكتاب «الأيّام» لطه حسين وهو يتحدّث عن مرضه بعينيه، وكيف فقد بصره بسبب الجهل والإهمال وهو في السّادسة. وكم بكيت حين حكى عن أخته الّتي مرضت ثمّ ماتت في الرّابعة من عمرها. وكم أعجبتني سيرة العقّاد المتفلسفة الفريدة من نوعها «أنا» وكم هزّتني «سبعون» ميخائيل نعيمة وأخذتني بعالمها السّاحر ولغتها البديعة.. ولو ذهبت أستقصي كل ما قرأت في هذا الباب لطال الحديث.

وفي المحصّلة فإيماني أنّ كلّ إنسان كبر شأنه أو صغر له قصّة جديرة بأن تُحكى.. وكما قال الإمام عليّ ابن أبي طالب فيما يُنسب إليه:

«دواؤك فيك وما تشعر

وداؤك منك وما تبصر

وتحسب أنّك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر.»

* * *

رسالة إلى إيمان

لا أدري من أين أبدأ يا إيمان. فأنا منك وأنت منّي مع فارق في التّوقيت. فلولاك أنت لما كنت أنا أنا. ولو اخترت طريقا آخر لتسلكيه فيما مضى لما كنتُ هنا لأخاطبك اليوم وأجلس معك جلسة مكاشفة بعيدا عن الأنظار.

قد قرأت كتابك هذا الّذي تتحدّثين فيه عن مغامراتك في العمرة، وبالمناسبة أهنّئك على هذا الإنجاز المعتَبَر إذا ما عرفت كم أنّك كائن كسول في العادة وجبان. نعم أنت جبانة وهشّة نفسيّا، إذ لطالما احتجتِ إلى مباركة الآخرين لآرائك واختياراتك. لا أقول أنّ هذا ينطبق على جميع أمور حياتك، لكن كثيرا ما احتجت إلى من يدفعك في هذا الاتّجاه أو ذاك. فماذا حدث كي تستجمعي شجاعتك وإيمانك وتكتبي هذا الكتاب سرّا دون أن تخبري أحدا إلّا حين كدت تنهينه عملا بمقولة استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ثمّ شفقة من اللّغو الفارغ دونما نتائج وجعجعة لا يتبعها طحن؟

قرأتُ قصّتك وبفضلها تذكّرت من كنتُ قبل ثلاث عشرة سنة. وراعتني كمّيّة الدّراما في كلامك، لا سيّما عند حديثك عن ضياعك في الحرم المكّيّ.. أنا أفهم تماما شعورك، وباستطاعتي تخيّل خوفك وأنت تسافرين للمرّة الأولى في حياتك، لكنّك أسرفت وبالغت في الخوف والجزع والحزن والبكاء. أنت ببساطة من النّوع الّذي يغرق في كأس ماء. الآن بإمكاني تفسير جزعك وقلّة صبرك وشدّة تأثّرك حين ادلهمّت السّماء في وجهك وأصابك ما يصيب النّاس من ابتلاءات صغيرة لا بدّ منها لندرك أنّنا لسنا في الجنّة، فلا

نركن إلى هذه الحياة الدّنيا ونطمئنّ لها، بل نضع نصب أعيننا وطننا الحقيقيّ الّذي خلقه الله لنا وخلقنا له إلّا أن نفرّط فيه بأيدينا وشرّ أعمالنا...

إذا كان جزعك بهذا الشّكل حتّى تخيّلت أنّك صرت من المشرّدين فقط لأنك ضللت الطّريق إلى نزلك في مكّة، فما أنت فاعلة إذا نزل بك بلاء في بدنك أو ضرّ في زوجك أو ولدك؟ ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وتؤمن بقضائه وترضى بأقداره؟ ألم يأن للقلب الجزوع أن يهدأ ويطمئنّ ويستكين؟ وهذا العقلُ الّذي تغذّى بعشرات الكتب وشرب من معين حكمة الحكماء وتجارب المفكّرين وقصص الأدباء، أما آن له أن ينتفع بما يقرأ؟ مالك إذا كنت في صحبة كتاب ترتفعين وتحلّقين في آفاق سامية ثمّ إذا أغلقته وعدت إلى الاحتكاك بمصاعب الحياة العاديّة واليوميّة قلّ صبرك وعلا صوتك؟

لا أخفيك أنّ ظنّي قد خاب بك، أي بنفسي، فأنا أنت لكن في الأربعين. وقد كنت أحسب أنّ هذا هو سنّ الحكمة وكمال العقل والدّين... فما راعني إلّا أنّي قد بلغت فيه أقصى درجات الحمق وهويت في أدنى دركات الضّعف كأنّني كلّما اشتعل الرّأس شيبة اشتعل الطّبع حدّة والتهبت رقاقة الصّبر البائسة الّتي اقتحمت بها لجج هذه الحياة الدنيا.

أتدرين يا إيمان؟ ابنتك اليوم في الثّالثة تردّد قولك: «يا ربّ أعطيني الصّبر والقوّة»... نعم أنت بحاجة إلى الصّبر والقوّة، بل الصّبر في حدّ ذاته قوّة. وما القوّة إلّا الصّبر على المكاره والمسؤوليّات والواجبات... حسنٌ، لست هنا لأجلدك. ولا أخفيك أنّي نسيت جلّ ما كنت أنوي قوله تعليقا على

هذا الحدث أو ذاك، فأنا مثلك تماما بداء الّتسويف مبتلاة ولولاه لسارعت بتدوين خواطري الآنيّة ما إن قرأت مذكّراتك في العمرة. لكن سأخبرك سرّا، ليس ثمّة أيّ فرق بيني وبينك ما عدا البراءة. فكلّما تقدّمنا في السّنّ فقدنا براءتنا. فقد كنّا صغارا نؤمن بالصّداقة والحبّ والوفاء، فإذا الصّداقة سراب وإذا الحبّ عملة نادرة، وإذا الوفاء نصب تاريخيّ علاه التّراب إلّا من رحم ربّي وقليل ما هم.

أنت يا إيمان إنّما كنت متدثّرة بحجاب لفّته أمّك حولك لتحميك من قسوة العالم، ومبلغ ما تحمّلت من مسؤوليّة دراستك في المعهد والجامعة، وسكنك في مبيت ودار ثمّ سفرك اليوميّ بالحافلة. فما إن وجدت نفسك مقيدة بخطوة عمّتك مسؤولة عن سلامتها حتى جزعت وما أن ضللت طريقك حتى فقدت معه صوابك بل وجزءا من إيمانك. لكن أوتعلمين ما علّمتني الحياة؟ أكبر كنز علاقتك بالله وأعظم نعمة قوة الإيمان والصّبر في البأساء والضّرّاء.

حسبك من الدّروس والعبر، أنصحك باستغلال ما تبقّى من حرّيّتك المؤقّتة لتنامي جيّدا وتقرئي كلّ الكتب التي تحبينها وتستمتعي بحصن أمّك الحصين الّتي أخفت عنك الحقيقة المُرّة كلّ هذه السّنين، فقريبا ستتزوّجين وتكتشفين أهوال البيت وحقيقة المسؤولية في جوهرها طبعا بعد أيّام حلوة ولذيذة مع حبيب القلب، ثمّ تأتي الطّامّة الكبرى، عفوا ثمّ يأتي ولد تليه بنت وكلاهما مولود في الشتاء.. هناك مع اختبار الأمومة ستزلزلين زلزالا شديدا، هناك ستكتشفين كم أنك قارورة هشة وبحاجة ماسة إلى حضن دافئ وصينيّة

أرز ولحم ومعينة منزليّة على شكل روبوت ياباني لأنّك كائن انطوائيّ. نعم قد يوفّر عليك الرّوبوت بعض نوبات الغضب والهستيريا إذا ما رأيت الخراب والدّمار وأثر أقدام صغيرة في كلّ ركن من أركان البيت حتّى في سريرك. لكنّك ستكتشفين أيضا قدرات خارقة ومواهب متعدّدة لم تعلمي عنها من قبل شيئا: فأنت مرضعة وطبّاخة وممرّضة ومعلّمة ومربّية وأحيانا طبيبة... آه نصيحة أخرى ثمينة: اشتري أكبر حجم من الأسرّة وضعيه في غرفتك، فستأتي تلك الكائنات الصّغيرة عدّة مرّات في اللّيل وتحتلّ المكان وتضع أقدامها في وجهك، وسيتواصل هذا حتّى ساعات متأخّرة من العمر كالسّابعة مثلا! أتمنّى لك حظّا سعيدا... ألا قد بلّغت اللّهم فاشهد!

* * *

دار البشير